
أعمال الرعب
الأصلية
د/حسين السيد
قطط سوداء
رواية
ساحر الكتب



اسم العمل: قطط سوداء - رواية
المؤلف: حسين السيد

الناشر:
بيت الياسمين للنشر والتوزيع

رقم الإيداع:
2024/2475
الترقيم الدولى:
9789778172843
تصحيح لغوي: سارة صلاح

الطبعة الأولى 2024

الإشراف العام:
زياد إبراهيم

المراسلات:
الدور الثانى شقة 3
71 ب حدائق الأهرام البوابة الأولى -
ميدان الرماية - الجيزة

البريد الالكترونى:
baitelyasmin@gmail.com
ziad.meguid@gmail.com

تليفون:-
(+202) 01016685583
(+202) 01110094625

إهداء...

إلى د. مؤمن محمود.. طبيب الأشعة الرائع الذي أعتز كثيرًا بصداقته،

وإلى لين مؤمن وعمر مؤمن.. حياة طويلة وسعادة لا تنقطع..

الباب الأول: قربان بشري

1

كان الوقت يمضي ببطء سخيف، بل بدا وكأنه لا يتحرك؛ هكذا شعر محسن. لقد تجمد الزمن. وفي تلك اللحظة تمنى لو انتهت الحياة كلها، وتلاشى العالم تمامًا.

ورغم هذا ظلت عيناه معلقتين بزوجته أنغام في انتظار انهيار يتوقع حدوثه في أي لحظة ويخشى تأثيره.

أمامهما جلس الطبيب البدين المبتسم دومًا كالحمقى أو المهرجين وهو لا يكفّ عن توزيع تعليقات ودعابات سمجة غير مفهومة، مع ما يلقيه على أسماعهما من كلمات تنهش روحيهما وتدمي نفيسهما. هل يعتقد ذلك الأحمق أنه حين يبتسم هكذا في وجيهما فسوف يخفف هذا شيئًا من النيران المستعرة في أعماقهما؟!

وواصل الطبيب السخيف حديثه الذي لم يستمعا لأغلبه:

- المشكلة الدائمة في عمليات الإخصاب الاصطناعي هي الرحم. أغلب الأرحام تتقبل الأجنة بسهولة؛ لأن هذه هي وظيفتها الأساسية التي خُلقت من أجلها. وهناك أرحام أخرى تلفظ النطفة أو الجنين المتكون حديثًا على الفور. وهناك التي تؤجل عملها المقيت هذا إلى حين. المشكلة التي تواجهنا جميعًا كأطباء أنه لا أحد يعرف مسبقًا أي رحم سوف يتصرف كالنوع الأول ولا أي واحد سيفعل كالأخير. ولا أعتقد أن هناك طبيبًا يمكنه أن يجزم بشكل دقيق بنجاح عملية الإخصاب واستمرار الحمل من عدمه.

ارتجفت شفتا زوجته، وتسارعت أنفاسها حتى بدت وكأنما تلهث. بينما يراقبها بأنفاس محبوسة وهو ينتظر لحظة انهيارها في أي ثانية. إن ما يسمعانه الآن من هذا الطبيب اللعين وما يحدث لهما الآن كان ككابوس شنيع يأبى أن ينتهي. وعاد الطبيب الشهير - ذو الوجه الأعلامي المعروف والذي يظهر على شاشة التلفاز طوال الوقت وهو يعد الجميع بالأطفال- للتحدث وهو يمسح من جبهته الصلعاء عرقًا وهميًا لن يحدث أبدًا مع البرودة الشديدة التي يحدثها جهاز التكيف الضخم والذي أحال الحجرة لثلاجة:

- الهرمونات في الواقع هي كلمة السر. لا أدري هل قرأتم عنها من قبل أم لا، ولكني هنا لأخبركم بأنها هي المسؤولة عن إعداد جدار الرحم لاستقبال الجنين قبل عملية التلقيح، وتجهيزه بمقومات الحياة الملائمة لنمو البويضة المخصّبة واستمرارها بداخله. لكن معك يا سيدتي فإني أعتقد أن هناك مشكلة لا ندرك كنهها هي ما تجعل مستوى الهرمونات الجنسية في دماءك تسير في البداية بصورة نموذجية، قبل ان تنخفض فجأة بعد حدوث التلقيح والاخصاب، فيعجز الرحم حينها عن الاستمرار في القيام بعمله ويعجز عن الحفاظ على الجنين.

هنا تحدثت أنغام للمرة الأولى وقدميها لا تكفان عن الاهتزاز بينما ترتعش شفتيها بالكلام وهي اخرجه:

- لست أفهم شيئًا مما تتحدث به يا دكتور، أخبرني ما معنى

ما تقوله.

شعر محسن بالشفقة عليها، الطبيب منذ البداية يلف ويدور كي يخبرها أن الأمر قد فشل، لكن عقلها الباطن كما يبدو يرفض التصديق. ومرة أخرى عاد الطبيب الأصلع ليجفف بمنديله الورقي عرقه الخفي. شعر محسن أن توتره لا يقل عمّا يشعران به. إنه محاصر تمامًا مثلما هما محاصران. تجاهد البسمة على شفتي الطبيب في التلاشي، وهو يقول بأسف مصطنع:

- يؤسفني أن أخبرك أن الجنين قد انتهى هذه المرة أيضًا. وليس أمامنا غير القيام بعملية كَحت وتنظيف لبطانة الرحم للتخلص من بقاياه كي لا تسبب لك في مشكلة.

تترقرق الدمعات الساخنة في مقلتي أنغام وهي تبحث عن شق طريق لها في وجهها لترى النور هي الأخرى. ويحاول محسن أن يتماسك كي لا تنهار أنغام الآن. كانت هذه المرة الرابعة. المحاولة الرابعة للإنجاب، وكلها كانت عن طريق الحقن المجهري. غيروا الطبيب الأول بعد محاولتين فاشلتين لم يستقر فيهما الجنين في جوف أنغام أكثر من أسابيع ثلاثٍ قبل أن يلفظه الرحم.

ثم حاولا مع طبيب آخر، أخبرهما الكثير من المعارف والأصدقاء عن براعته المؤكدة، وعن شهاداته العلمية الكثيرة التي تلقاها عبر تعليمه في إنجلترا، كعبة الطب في العالم. طمأنهما الطبيب الوسيم والذي بدا كنجوم السينما

في أناقته أن المسألة تحتاج لبعض الصبر، وطالبهما بالكثير من الفحوصات المهينة والتحاليل الباهظة الثمن، تحملها الاثنان في صبر وأمل، ثم كانت المرحلة الثانية من العقاقير والهرمونات المنشطة لكليهما، وفي النهاية قام بعملية الإخصاب، لكن الجنين لم يمكث في بطن أمه غير أسبوع واحد لتصاب أنغام بنزيف شديد وأنيميا حادة كادت أن تودي بحياتها نفسها. كانت الثالثة هي النهاية لمحسن. قرر أن يستسلم للأمر، ويكف عن البحث عن الإنجاب. إنه يحب أنغام، وها هو كاد أن يفقدها في تلك المحاولة الثالثة الفاشلة.

إذًا ليَمتثل هو وهي لإرادة الله. وليؤمنا أن هذا قدريهما.

لكنها عادت بعد بضعة أشهر تلحّ عليه في تكرار المحاولة مع طبيب آخر ولو لمرة أخيرة. كان يخشى أن تفشل تلك المحاولة فتتحطم نفسية أنغام، أصرّ على رفض المحاولة، وأصرت هي على القيام بالأمر، في النهاية امتثل لرغبتها، وذهبوا لهذا الطبيب البدين الشهير الذي لا يفارق وجهه شاشات التلفزيون وهو يبشر المشاهدين بقدراته المذهلة في تحقيق أحلامهم الملحة للإنجاب. وها هو قد فشل هو الآخر كمن سبقه، وكالأطباء الملاعين السابقين يحاول أن يلصق التهمة بالهرمونات والرحم الذي يأبى القيام بعمله الأبدي في تربية الأجنة واحتضانهم.

وهل يأبى أي رحم فعل هذا؟! إنه فقط يبرر فشله بلا شك. لا يريد أن يشكك أحدٌ في براعته أو يتهمه بالنصب وعدم

الكفاءة وخاصة وقد نال منهما مبلغًا ضخمًا للغاية.

عاد محسن للتحدث ليقطع جدار الصمت الذي أطبق عليهم وهو يرقب زوجته المتصلبة في مقعدها ودموعها تنهمر بلا توقف في صمت:

- هل يعني هذا أن علينا أن نعيد الكرة مرة أخرى؟

حرك الطبيب نظارته الأنيقة ورفعها من فوق أرنبة أنفه، ثم دعك بأنامله عينيه الضيقتين وهو ينطق بحكم الإعدام على مسمعيهما:

- في الواقع لا أعتقد أن النتيجة ستختلف كثيرًا لو حاولنا ثانية. أرى أن المرات الأربع التي قمتم بها لإنجاب طفل، ولم تنجح واحدة منها كفاية لتكفوا عن المزيد من المحاولات. ومَن يدري! ربما كان علينا أن ننتظر لبعض الوقت قبل القيام بأي شيءٍ آخر.

يشعر محسن بغصة في حلقه من الجواب الذي بتر الأمل وأماته. وتبدأ أنغام في البكاء الارتجاف مع بكائها الصامت، سيتحول هذا البكاء إلى نحيب بعد قليل وسيتحول هذا الصمت إلى جنون وانهيار.

يسأل محسن الطبيب وهو يربت على كفي زوجته الباردتين كالثلج:

- ألا يمكنها أن تتناول عقارًا ما أو تقوم مثلًا بعملية جراحية لتعالج مشكلات الرحم هذه؟

هز الطبيب رأسه بالنفي وهو يتطلع إلى ساعته وكأنما يخبرهما أن وقتهما قد انتهى، وأنه حان الوقت ليرى مريضًا آخر.

- لقد تناولت بالفعل كلّ عقارٍ ممكنًا. لا أعتقد أنه من الحكمة أن نحارب لوقت أطول من هذا. هناك دائًما وقت للتوقف عن المحاولة، وأرى أن هذا الوقت قد حان معكما. صدقاني لا أريد بثّ أملٍ جديدٍ زائف في نفسيكما ولا أريد أن أتسبب في المزيد من استنزافكما ماديًا. لقد قمتما بكل شيء ممكن وأعتقد أن هذا يكفي. لتتركا الأمر للخالق فلا أحد يدري ماذا يخبئ لكما.

بدت الكلمات القاسية كأنما تنهش روح أنعام ونفسها وتمزقها. تزداد قدميها ارتعاشًا وما زالت الدموع تنهمر من مقلتيها على صفحة خديها كالفيضان وما زال محسن يربت على يديها مهدئًا.

وقرّر محسن أن يبحث عن أمل أخير، فقال ببطء:

- وماذا عن الخارج؟

- ماذا تعني؟

تنحنح محسن في خفوت وهو يقول:

- أعني هل هناك مكان ما بالخارج يمكنه أن يساعدنا في الإنجاب. ربما يقومون هناك بأمور لا تفعلونها هاهنا.

لكن الطبيب عاد ليبتر الأمل وهو يجيب:

- للأسف لا يوجد مكان في العالم يقوم بما هو أكثر مما نقوم به في مصر. لقد تقدمنا كثيرًا، ربما كان هذا يحدث في الماضي. لكن الأمر اختلف الآن كثيرًا. كل مايقومون به نقوم به هاهنا بنفس الكفاءة تقريبا. لكن هناك أمرًا واحدًا يقومون به ولا نفعله هاهنا.

توقفت الدموع فجأة في مقلتي أنغام، ورفعت رأسها لتنظر للطبيب وهي تقول بلهفة:

- أي شيء هذا؟ أخبِرنا به وسوف نقوم به؟

نظر الطبيب نحو ساعة الحائط وقال بهدوء:

- استئجار رحم للجنين. إنهم يقومون باستئجار رحم امرأة سليمة ليكون بديلًا عن رحم الأم الضعيف. في البداية يقومون بنفس عملية الحقن المجهري التي خضعتما لها. يتم نزع بويضة من الأم وحيوان منوي من الأب، ويتم التلقيح خارج الرحم، وبعد ذلك يقومون بوضع البويضة الملقحة في رحم السيدة الأخرى، لينمو الطفل بأحشائها حتى تلده، ثم يعيدونه بعدها إلى أبويه الأصليين.

كان هذا الأمر عجيبًا عليهما، لم يخبرهما أحد بمثل هذا الأمر، فقال محسن متعجبًا:

- ولماذا لا نفعل هنا في مصر؟

أجابه الطبيب ببساطة:

- لأن الدين والقانون لا يجيزانه. الأمر به شبهات دينية لا

يقبلها رجال القانون أو الدين. لقد أفتى الأزهر بحرمة هذا الأمر. الأمر به شبه زنا واختلاط أنساب وهذا ما لن يقبله رجال الدين بلا شك.

ومرة أخرى يعود الصمت والأنفاس اللاهثة الباكية لأنغام والتوتر على وجه محسن والعرق الزائف على جبين الطبيب العريض. لقد انتهى الأمل تمامًا. سد الطبيب كلّ الشبل أمامهما ولم يعد باقيا أمامهما غير الاستسلام للأمر. نظر الطبيب مرة أخرى نحو الساعة المعلّقة خلفهما فأدرك محسن أنه يطالبهما بالانصراف.

ونهض محسن من مقعده وقال:

- إذًا ما الذي سنقوم به الآن؟

- ستعودان للمستشفى ثانية. سوف أكون هناك بعد قليل لنخرج بقايا الجنين من الرحم. لو لم تكن مدام غادة مستعدة لهذه العملية البسيطة فيمكننا أن نؤجلها الأمر للغد؟ لا بأس لو فعلتما.

نظر محسن إلى زوجته، قبل أن يقول في حسم:

- وما جدوى الانتظار. كلا، سنذهب إلى المستشفى الآن، من الأفضل أن ننتهي من الأمر الآن.

ثم غادرا العيادة الفخمة المزدحمة واجمين ودموع أنغام لا تنقطع، ومحسن يحتضنها محاولًا مواساتها بذراعيه وقد عجز لسانه عن فعل هذا. سارا واجمين حتى السيارة، وما

إن دلفتها أنغام حتى انخرطت في البكاء الشديد، وقد غطت وجهها بكفيها وراح جسدها ينتفض بقوة. لم يدرِ محسن كيف عليه أن يهوّن عليها ما تعانيه، فصمت. تحرك بالسيارة مبتعدًا عن ذلك المركز اللعين الذي شهد فشلًا آخر لهما. لكنها وبعد لحظات رفعت رأسها عن عينين حمراوين محتقنتين مليئتين بالدموع والألم وصرخت في وجه محسن:

- أعتقد أن هذا يكفي لكلينا. طلقني وتزوج بأخرى يا محسن. طلقني الآن يا محسن!

2

رن هاتف محسن المحمول. وحين رمق شاشته تنهد في ضيق وهو يرى أنها أمه التي تتصل به. تردّد في الرد عليها للحظات، قبل أن يحسم أمره ويستقبل المكالمة فأتاه صوتها غاضبًا:

- لماذا تتجاهل مكالماتي؟ اتصلت بك عشرات المرات ولم ترد.

حاول محسن أن يتمالك نفسه ويجيبها بصوت هادئ:

- معذرة يا أمي، كنت مشغولًا قليلًا، ولم أنتبه للهاتف.

- ثلاثة أيام لم تنتبه فيها أن أمّك ترغب في الاطمئنان عليك والحديث معك؟

هذه المرة وجد نفسه يجيبها بحدة:

- ماذا تريدين يا أمي؟

صمتت أمه لحظة وكأنما تفاجأت بحدته، قبل أن تصرخ في وجهه:

- أما زلتَ تسأل عما أريد؟ أريدك أن تكف عن عنادك الأحمق؟ وأن تستمتع إليّ. أنا لا أطالبك بتطليق أنغام، لكني أسألك عن حقي في رؤية أحفاد لي منك قبل أن أموت. أبوك في مقبرته لا يشعر بالراحة وقد أتاني اليوم في حلم وكان غاضبًا منك. إنه يرغب في حفيد يحمل اسمه وأنت ابنه

الوحيد. يا بني كل ما أطالبك به هو أن تتزوج بأخرى تنجب لك الأبناء، ويمكنك الاحتفاظ بأنغام في عصمتك.

اختلس محسن النظر إلى باب المطبخ المفتوح حيث توجد أنغام وهي تعد الطعام، وتحرّك من مكانه بالصالة نحو حجرة الصالون البعيد، وهمس في أمه وهو يخشى أن تستمع أنغام للمكالمة:

- هذا ليس وقت الحديث في هذا الأمر يا أمي. إنها بالداخل.

واصلت أمه الصراخ عبر الهاتف:

- وهل تخشاها لهذا القدر؟ ولماذا لا تخشى غضبي منك وأنت أمامي هكذا كنخلة عقيم لا جدوى منها؟

دومًا كانت أمه متسلطة وعصبية، فعلت هذا مع أبيه الميت واعتادت أن تسيطر عليه بصراخها هذا، لكنه منذ زمن بعيد قرر المقاومة، قرر ألا يسمح لها أن تتحكم في حياته ومصيره، وكان هذا مبعث التوتر الدائم القائم بينهما؛ لذا أجابها بنفاد صبر مجاهدًا نفسه كي لا يحتد عليها:

- أنا لا أخشاها يا أمي. فقط لا أرغب في جرح مشاعرها بالحديث أمامها في هذا الأمر.

لكن أمه قالت في عناد:

- إذًا، استمع لي وتزوج بأخرى. ما رأيك بسناء ابنة خالتك؟ إنها جميلة وهي تميل لك. أخبِرني بموافقتك وسأتولى الأمر

كلّه عنك. وأعدك أن أقنعها ألا تطالبك بتطليق أنغام.

هذه المرة لم يتمالك نفسه فارتفع صوته رغمًا عنه وكاد أن يصل لمرحلة الصراخ وهو يهتف:

- هذا يكفي أمي، كفي أرجوك عن هذا. سناء مثل أختي ولا أراها غير هذا. أرجوك دعيني وشأني وحياتي، ولو شئت الزواج يومًا ما، يمكنني أن أهتم بأمري. لكن حتى هذا الحين، أرجو ألا تحدثيني في هذا الأمر ثانية.

هنا تبدأ أمه في البكاء، وقد أدركت أنها فشلت في إقناعه بصراخها، لتجرب حيلتها الثانية إذا، إنها حيلتها القديمة التي تجيدها والتي تفلح معه غالبًا في كل مرة. لكنه هذه المرة لن يلين لها فيما تطالبه به. إنه يحب أنغام ولا يرغب في تركها، ويعلم أنها لن تتقبل أن يتزوج بأخرى في وجودها. إنها لم تنجب لأن هذا قدرها، وليس لخطأ ارتكبته، فليكن قدره هو الآخر وليصبر مثلها. ويباغته صوت أمه وهي تقول باكية متوسلة:

- كل ما أريده يا محسن أن أرى طفلًا لك قبل موتي. أن أحمله علي ذراعي وأن أهدهده. لماذا تبغي حرماني من رغبتي هذه؟ هذا حقي يا محسن أن أفرح بأحفادي.

- لديكِ أبناء هالة. أليسوا أحفادك؟ يمكنك أن تفعلي بهم ما شئتِ يا أمي، لديك الأحفاد بالفعل فلماذا تقسين عليّ؟

- أريد أحفادًا من ابني الوحيد. أحفادًا يحملون اسم أبيك كي لا يطمس يومًا ذكراه واسمه من الحياة للأبد. أريد حفيدًا

يتذكر الناس جده حين يرونه.

يزفر محسن في ضيق حقيقي وقد سَئِمَ الأمر:

- إذًا اسألي الله أن يهبني الأبناء، مَن يدري، ربما استجاب الله لدعائك.

- سوف أسأله أن يرزقك بأخرى، لن تنجب أبدًا من أنغام، قلبي يخبرني بهذا.

قالتها وأنهت مكالمتها في حدة. رفع بصرَه عن الهاتف الذي همدَ صوتُه فرأى أنغام تقف على باب حجرة الصالون وهي ترمقه بابتسامة مريرة على شفتيها، وتحمل معلقة خشبية طويلة تستخدمها في تقليب الطعام. حاول الابتسام في وجهها، أو قول شيء ما، لكنه سبقته وهي تقول بصوت هادئ غريبٍ:

- لا داعي لاختلاق كذبة جديدة يا محسن. لقد كانت أمك ولا بُدّ أنها ما وككل مرة تتحدث معها، تطالبك بالزواج بأخرى.

ثم نظرت لعينه بعين لا ترمش وهي تتساءل:

- مَن سعيدة الحظ هذه المرة؟ هل هي ابنة خالتك؟

لم يعد الكذب ممكنًا أمام نظراتها الكاشفة. فاقترب منها وأحاط كتفيها بذراعيه وقبّل شعرها قائلًا:

- لتقل ما تشاءه. المهم ما الذي أفكر فيه وأنوي فعله؟

- وما هذا الشيء الذي تفكر فيه وتنوي فعله؟

قبل شعرها ثانية، وضمها نحو صدره رغم أنها لم تستجب لذراعيه، وهمس في أذنيها:

- شهر عسل جديد بشرم الشيخ. شهر كامل نكون فيه سويًا، سوف نذهب دون أن نخبر أيّ أحدٍ عن مكاننا، سوف أغلق هاتفي وهاتفك، ولن يصل إلينا أي أحد، ها ما رأيك؟

اتسعت الابتسامة المريرة على وجهها وهي تسحب نفسها برفق من بين ذراعيه دون أن تجيبه على اقتراحه، تجيبه واتجهت نحو المطبخ ثانية. وهو يراقبها بوجوم قبل أن يسمع صوتها من بعيد وهي تقول:

- فكّر فيما تقوله أمك يا محسن. لو شئت رأيي فهي على حق فيما تطالبك به.

لكنه لاذ بالصمت. إنه يدرك جيدًا الألم الذي يعتمل بنفسها والمرارة التي تطل من أعماق روحها وكلماتها. أسابيع طويلة مضت منذ إجهاضها الأخير، وقد تبدل حالها تمامًا. ماتت النظرة الحية في عينيها وحلت محلها نظرات باردة تنضح باللامبالاة. صارت تتعامل معه بعصبية شديدة وصارت تثور لأتفه الأسباب. ظلت تطالبه بإلحاح أن يطلقها ويتزوج أخرى. ولم تفلح محاولاته معه في طمأنتها أنه لن يفعل هذا أبدًا. اعتاد دومًا على الهمس في أذنيها وهو يحتضنها، أنه لا يريد من العالم كله إلا هي. لقد كان يرغب في الأطفال فقط ليكونوا مثلها. ليحملوا جيناتها وجمالها وروحها المشرقة. يرغب فيهم لأنه يحبها وليس لأنه يرغب في الإنجاب، لكنه

كان يعلم أنها لا تصدقه، كان يرى هذا مكتوبًا على ملامحها. هو نفسه يدرك أنه بالفعل يتوق لطفل ينجبه، لكنه مع هذا لا يطيق فراقها أو إيذاء مشاعرها.

لم يعد هناك جدوى من أي مواساة أو حديث بينهما الآن وقد تعكر مزاجهما، فاتجه نحو حجرته وفتح (اللابتوب) الخاص به. سوف يبحث عن آخر الأخبار الرياضة على موقع «في الجول»، ثم يمضي الوقت بعدها في تصفح صفحته على فيس بوك. مضت دقيقتان من الانتظار حتى عمل النظام على حاسبه المحمول. ثم فتح المتصفح على صفحته بالفيس بوك وبريده الإلكتروني. لدهشته وجد رسالة جديدة في رسائل الفيس بوك معنونة بعنوان غريب (حقق معنا أحلامك).

لم يكن هناك من اسم للمرسل. فقط نقاط متتالية كثيرة، فكّر أن يتجاهلها، وقد خشي أن تكون محاولة لاختراق حساباته الإلكترونية، أو أن تحمل له فيروسًا ما يدمر بياناته. لكنه نظر إلى علامة مضاد الفيروسات التي تبرق أسفل الصفحة كأنما تزأر في وجهه معلنةً له ألا خوف من أي شيء ما دمت موجودة. تردد للحظات ثم حسم أمرَه، لو كانت فيروسًا فلا بُدّ من وجود رابط ما عليه أن يضغطه أولًا ليعمل الفيروس، وهو ما لم يفعله بالطبع، ولو كانت محاولة لسرقة حسابه فهي أمر يثير السخرية والضحك، فمن ذا ذلك الأحمق الذي قد يفكّر في سرقة أكونت تافه لا شأنَ له ولا يوجد بداخله ما يريب.

هنا فتح الرسالة التي كانت مختصرةً للغاية وغريبةً في الوقت نفسه.

هل ترغب في إنجاب الأطفال؟!

يمكننا مساعدتك!!

زر موقعنا على الفيس بوك من هذا الرابط ونعدك أنك لن تندم!

رمق الرسالة في حيرة ممزوج بالدهشة والقليل من الذهول وهو يفكر في فحواها. من أرسلها له، وكيف أدرك أن يعاني من مشكلة كهذه؟ طالما سمع وقرأ عن تلك الإشاعات التي تتحدث عن تلصص وسائل التواصل الاجتماعي على المشتركين فيها، وطالما حدث له ما يؤكد هذا الأمر، ففي بعض الأحيان كان يتحدث مثلًا إلى صديق له عن شيء ما، حدث رياضي مثلًا، أو سيارة حديثة، أو أكلة يحبها، والعجيب أنه يجد على صفحته بعدها فور أن يفتحها منشورات تعرض ما كان يتناقش فيه مع صديقه، البعض يزعم أن تلك المواقع تستغل الهاتف المحمول كوسيلة تصنت على صاحبها، والبعض الآخر يرى أنها تتجسس على نشاطه عبر الإنترنت، فلو بحث مثلًا عن مكان مطعم ما، يجد صفحته على الفيس بوك وقد عرضت المطعم أمامه والكثير من المطاعم التي تشبهه.

الاحتمال الأخير كان محتملًا، فصفحة جوجل الخاصة به تمتلئ بالبحث عن أحدث وسائل معالجة العقم وتأخر

الإنجاب، والأماكن المحتملة التي تعالج تلك الحالات، لكن الأمر ظلّ غريبًا، فلو رأي مثلًا منشورات على صفحته تتحدث عن أطباء ومراكز علاج تأخر الإنجاب لكان الأمر مفهومًا، لكن العجيب أن يجد من يرسل له رسالة على بريده بهذا الشأن.

هل يعني هذا أن هناك مَن يتلصص عليه بعد أن اخترق حساباته وهاتفه أو حاسبه المحمول؟

تردد للحظات قبل أن يحسم أمره ويضغط على العنوان الملون باللون الأزرق. انبثقت على الفور أمامه صفحة جديدة. صفحة حالكة السوداء وفي منتصفها اصطفت كلمات أسفلها سهم صغير

«أهلًا بك. لدخول الصفحة اضغط على السهم بالأسفل».

ضغط على السهم فتبدّلت الصفحة السوداء إلى صفحة أخرى ذات ألوان مبهجة، وقد امتلأت بصور عشرات الأطفال المبتسمين الممتلئين حيوية وجمالًا. وانبعثت منها أصوات ضحكات أطفال رضع عذبة للغاية، وعلى الجانب الأيمن من الصفحة وجد مربعًا مكتوبًا فوقه:

«يمكنك الاتصال بنا من هنا».

تأمل الأطفال الذين تمتلئ الصفحة بهم. ووجد قلبه يخفق في شوق حقيقي، وهو يتمنى لو كان لديه طفل مثلًا هؤلاء. مضت نحو الدقيقة ثم ضغط بالمؤشر على المربع. تبدلت الصفحة مرة أخرى وظهرت نافذة صغيرة للمحادثة في جانب الصفحة وقبل أن يفعل أي شيء بدأت محادثة لا يدري

من يكون طرفها الآخر.

- مرحبًا بك في صفحتنا. هلّا عرفتنا بنفسك؟

- أنا محسن، لكن مَن أنتم؟

تجاهل الطرف الآخر إجابته وهو يسأل:

- مرحبًا محسن. هل هذه هي زيارتك الأولى للصفحة؟

تردّد محسن للحظة وفكّر ألا يكمل المحادثة المريبة، لكن أصابعه بعد هنيهة واصلت الكتابة:

- نعم. لكن مرة أخرى أتساءل. مَن أنتم؟

جاءته الإجابة على الفور مرة واحدة وكأنما كان الطرف الآخر الغامض في المحادثة قد أعدّها له:

- يمكنك أن تقول إننا أصدقاء، ونحن هنا لمساعدتك. وطالما وصلت لهذه الصفحة فهذا يعني أننا قد راسلناك، وأن لدينا ما نقدّمه لك.

- وما الذي يمكنكم تقديمه لي وأنا في حاجة له؟

محادثة محيرة مريبة، وكان هناك هاتف سري في نفسه يخبره أنه يضيع وقته في تلك المحادثة، التي لا طائل منها، لكنه قرّر مواصلة تلك المحادثة حتى النهاية، كان يشعر بالملل ولهذا لم يجد هناك من ضير لو واصل الحديث.

لم تصله الإجابة هذه المرة على الفور، وظلّ محسن يحدق في الصفحة الصامتة بحيرة، مضت خمس دقائق كاملة ظنّ

خلالها أن المحادثة قد انتهت هكذا قبل أن تظهر إجابة سؤاله الأخير على الشاشة:

- يمكننا أن نهبك طفلًا. أليس هذا ما ترغب فيه؟

حبس أنفاسه في إثارة وراحَ قلبُه يدق بعنف، وقد تعرّق جبينه بعرق بارد على الفور. ابتعدت أصابعه عن اللابتوب وكأنما تخشى أن تلمسه. ما هذا العبث أو لنقل ما هذا الجنون؟ ولماذ يقولون له إن بإمكانهم أن يهبوه طفلًا، وليس أن يعالجوا زوجته أو يساعدوهما على الإنجاب؟ هل هي محاولة نصب مبتكرة للحصول على بعض أمواله؟ ومرة أخرى فكر في إغلاق اللابتوب ونسيان تلك المحادثة المقلقة كلها وكأنها لم تحدث. لكن الأمل في قلبه كان أكبر من أن يتجاهل مثل هذا العرض حتى ولو كان متأكدًا بنسبة 99% أنه محاولة نصب أو عبث به. في النهاية سيتبقى احتمال أخير بـ 1% أن الأمر حقيقي ومن يدري ربما كان في هذا خلاصه وزوجته من معاناتهما مع الإنجاب. وبعد نحو دقائق سبع عادت أصابعه المرتعشة لتقترب من لوحة الكتابة وببطءٍ سأل:

- وهل يمكنكم فعل هذا؟

- بالطبع يمكننا. سوف نتحدث ثانيةً في هذا، فقط انتظر اتصالًا منّا وتفقّد بريدك الإلكتروني طوال الوقت فسوف نراسلك من خلاله.

- يمكنكم إرسال الرسائل عبر المحادثة في صفحة الفيس

بوك هذه.

- هذه الصفحة لن يمكنك الوصول إليها إلا حين ندعوك لها؛ لذا لا تحاول البحث عنها فلن تعثر عليها أبدًا. إلى اللقاء.

وانتهت المحادثة واختفت الصفحة نفسها مع انتهاء المحادثة. ظلّ يحدق في الصفحة البيضاء التي ظهرت أمامه قبل أن يعود للماسنجر ليدخل من خلاله إلى تلك الصفحة الغريبة ثانية عبر الرابط الذي أرسلوه له من قبل. وعقله مشغول في تلك الصفحة الغريبة التي ظهرت أمامه فجأة. مَن هؤلاء؟ وكيف وصلوا إليه؟ وكيف أدركوا مشكلته؟ أيكون الأمر مقلبًا أعدّه أحد أصدقائه؟ لو كان كهذا فهذا أمرٌ سخيف بلا شك ولن يسامح مَن فعلها. هناك أمور لا يجب الهزل فيها.

فوجئ بالماسنجر وقد اختفت منه الرسائل كلها التي أرسلها له أولئك الغامضون. تمامًا كما اختفت صفحتهم على الفيس بوك فور انتهاء المحادثة. شعر بالاضطراب وهو يحاول أن يتذكر هل كان هو من حذف الرسالة دون أن يعي هذا؟ لكنه لم يفعل بلا شك. هل هذا يعنى أن هناك من اخترق حسابه؟

ربما!

هنا فكر في ما عليه أن يفعله. سوف يغيّر الباسورد بآخر أكثر تعقيدًا. فعل هذا ومازال السؤال لا يفارق عقله.

مَن هم هؤلاء؟!

3

عملُه بحاجة دومًا إلى التركيز، وكان هذا ما يفتقده اليوم تمامًا. لم يفارق الموقع الغامض الذي زاره بالأمس خياله ولو للحظة واحدة وهو يفكر في ذلك العرض الغريب.

يمكننا منحك ما تريد. يمكننا منحك الطفل.

العبارة غامضة هي الأخرى وغريبة. لماذا لم يَقُل له يمكننا إبراء زوجتك من ضعف رحمها. أو لماذا لم يَقُل يمكننا مساعدة زوجتك في الحصول على الطفل. لكن منحك طفلًا كانت غامضة تخفي في جوفها الكثير من الاحتمالات.

إنّ مَن يمنح هو مَن يملك! فماذا يملك هؤلاء؟ بل وكان السؤال الأكثر إلحاحًا. مَن هؤلاء بالضبط؟!

يعمل كمحاسب في أحد البنوك الكبرى. وظيفة مرموقة منحته استقرارًا ماديًا لا بأس به، لكن من متطلباتها الحذر والحيطة والدقة والتركيز طوال الوقت. كان عمله يقتضي مراقبة الحسابات والودائع وعمليات الإيداع والسحب. جلس خلف شاشة الكمبيوتر المكتبي وكرّر مراجعته لعملية سحب نقود لأحد العملاء أربع مرات، وفي كل مرة يشعر أن هناك خطأً ما. وفي المرة الخامسة وجدَ زميله أحمد شبراوي واقفًا إلى جواره وهو يرمقه بدهشة قبل أن يقول:

- ماذا بك يا محسن اليوم؟ ما زلتَ تُراجع نفس الحساب منذ أكثر من نصف الساعة، هل أنت بخير أم هناك خطأ ما في

هذا الحساب؟

تنهّد محسن وهو يبعد رأسه من أمام الجهاز، ويدعك مقلتيه بأنامله في إرهاق حقيقي، ثم قال بضيق:

- لا أدري يا أحمد. أشعر بأنني لا أعي شيئًا مما أراه في تلك الجداول على شاشتي، بل وأشعر وكأنني أقوم بالأمر للمرة الأولى.

غمغم أحمد في إشفاق حقيقي وهو يربت على ظهره:

- ربما لم تنَل قسطًا كافيًا من النوم بالأمس يا محسن. لو كنت تشعر بالإجهاد يمكنك أن تطلب إذنًا من المدير بالانصراف مبكرًا هذا اليوم.

هز محسن رأسه رافضًا الفكرة، ودقّ على مكتبه بأنامله في إيقاع رتيب، وهو يزفر نفسًا طويلًا، قبل أن يغمغم:

- لا داعي لهذا يا صديقي. كوب (دوبل) من القهوة وسوف أستعيد تركيزي. إنه بعض الإرهاق لا أكثر.

لكن أحمد ظل يحدق بثبات في وجهه وهو يرى الهالات السوداء العميقة حول عينيه والتي تصرخ بحاجته الشديدة للنوم والراحة، قبل أن ينحني نحوه أكثر ويقول بجدية:

- كفى عنادًا يا رجل، ألم تنظر لوجهك في المرآة لترى كيف تبدو؟! غذ لبيتك يا محسن في الحال ولا تعاود العمل وإلا تسبّبت في كارثة. أنت تعمل في أموال يا رجل، وخطأ صغير يمكنه أن يخرب بيوتنا جميعًا.

أغمض محسن عينيه بإرهاق، قبل أن ينهض فجأة، ويلتقط جاكت البدلة المعلّق على مسند المقعد، ويغمغم:

- يبدو أنك على حق. أنا بالفعل في حاجة للراحة، سوف أستأذن الأستاذ حسام أولًا ثم أعود للبيت.

واقفه أحمد وتحرك معه وهو يكمل:

- أرى أن تحصل على إجازة كاملة ليومين أو ثلاثة، ولتحرص على أن تنام فيها طوال الوقت.

غادر محسن فرع المكتب بعدها لدقائق، وهو يفكر أنها المرة الأولى التي يعود فيها مبكرًا للبيت منذ أن التحق بالعمل، فالساعة لم تتجاوز العاشرة صباحًا. لم يكن بحاجة حقيقة للنوم قدر حاجته لأن يُريح عقله من هذا التفكير الذي سوف يصيبه بالجنون. جلس بداخل سيارته وأغلق باب السيارة دون أن يدير المحرك ووجد نفسه يضرب المقود بكلتا راحتي كفّيه وهو يصرخ:

اللعنة!

لو كانت رغبة هؤلاء الملاعين الذين حدّثوه عبر الفيس أن يصيبوه بالجنون فقد نجحوا. كان حديثهم لا يفارق عقله ولو للحظة. وعبارتهم اللعينة لا تفارق عينيه.

«يمكننا منحك ما تريد. يمكننا منحك الطفل».

ما يرعبه حقًا أن يكون الأمر في النهاية مجرّد عبث أو تلاعب بمشاعره، وخاصة وأن بذرة أملٍ حقيقي راحت تنمو

في روحه مبشّرة إياه بوليد قريب. أدار المحرّك وفكّر في ألا يعود مباشرة للمنزل. يمكنه أن يذهب إلى أحد الكافيهات المطلّة على النيل والقريبة منه، لكنه لم يشعر برغبة حقيقية في هذا؛ لذا تحرك بالسيارة نحو منزله.

في مدخل العمارة وجد مرزوق ابن البواب وهو يلهو في المكان كعادته. طفل ظريف في الثالثة من عمره تقريبًا. أنجب أبوه الذي يعمل كبواب للعمارة ثمانية أطفال غيره أصغرهم في الثانية عشرة من عمره الآن، وانتظر لأعوام عشرة كي يعاود الكرة مع زوجته ثانية فجاء مرزوق هذا. كان يحب الطفل رغم افتقاده للنظافة، من المؤسف ألا توليه أمه الاهتمام الكافي، كان من النادر أن يراه محسن بملابس نظيفة، أو وجه مغسول، ودومًا كانت رائحة غير محببة تنبعث من الطفل وكأنما لا يستحم أبدًا.

ورغم هذا كان محسن يحبه، وكان دومًا يلاعبه ويشتري من أجله الكثير من الحلوى وبعض الألعاب أحيانًا. اندفع الصغير نحوه فور أن رآه وهو يهتف بسعادة:

- أين الحلوى يا عمو؟ أريد الكثير منها وليس واحدة فقط.

أخرج محسن بعض الحلوى من جيبه وناوله إياها، وهو يقول له ضاحكًا:

- ها هي الحلوة الكثيرة كما تحب يا مرزوق. هي لك كلها، لكن أين حلوى عمو محسن؟

ثم يعطيه خدّه فيقبّله الطفل في حب حقيقي، قبل أن يعدو

بغنيمته ويختفي في أحد الأركان أسفل السلم ليأكلها بمفرده وهو يخشى بلا شك أن يراه أحد إخوته فيشاركه في غنيمته.
اتجه محسن للمصعد، وهو يفكر في عبد المجيد البواب الصعيدي العجوز القادم من سوهاج والذي بالرغم من فقره لا يجيد شيئًا أكثر من الإنجاب. هاهو يملك من الأطفال تسعًا ولو أراد يمكنه أن يحصل على المزيد، دون أن يبذل أي جهد أو ينفق ولو قرشًا واحدًا مع الأطباء بينما لا يستطيع محسن إنجاب طفل واحد.

«لله الأمر من قبل ومن بعد».

تمتم بها محسن في سره كي لا يبدو أمام نفسه معترضًا على حكمة الله وتصرفاته في خلقه.

دخل الشقة الساكنة فتوقع أن يجد زوجته نائمة. الساعة لم تكن قد تجاوزت العاشرة والنصف وهو لم يعتد القدوم في وقت مبكر كهذا، كما لم تعتد زوجته الاستيقاظ قبل الواحدة ظهرًا. بدّل ملابسه بهدوء كي لا يوقظها وحمل اللاب توب من حجرة نومه واتجه به نحو الصالة، حيث جلس فوق مقعد وثير.

شغل اللابتوب وقد علمَ أوّل ما سوف يفعله؛ سوف يتفقد بريده الإلكتروني بالطبع! ولدهشته وجد الرسالة التي ينتظرها. كان عنوانها «هل ترغب في طفل ما؟» وأمام خانة المرسل لم يكن هناك غير رموز غير مفهومة. حبس أنفاسه في إثارة وهو يتخيل ما سوف يجده بداخلها، هل

سيحدثونه عن طبيب عظيم يقوم بعمليات إخصاب وتلقيح لا يقوم بها غيره فوق سطح هذا الكوكب؟ أم سيطلبون منه أن يودع في حساب سري بإحدى الدول الأجنبية مبلغًا ضخمًا من النقود ليخبروه كيف سيساعدونه؟

في النهاية ضغط بالموشر فوق الرسالة فلم يكن بها أي شيء غير رابط إلكتروني يذهب به غالبًا إلى صفحة أخرى عبر الإنترنت.. توقف بالمؤشر فوقه وكاد أن يضغط عليه حين راودته فكرة ما، فقام بحفظ الرابط على جهازه في صفحة وورد خالية. ابتسم من لمحته الذكية تلك فهكذا يمكنه أن يصل للصفحة كما يشاء ولا يفقدها كما حدث في المرة السابقة حين حذفوا الرابط. عاد لبريده الإلكتروني وضغط الرابط فظهرت صفحة الفيس سوداء تمامًا كما في المرة الماضية. ضغط على السهم المكتوب فوقه:

أهلًا بك. لدخول الصفحة اضغط على السهم بالأسفل

تحولت الشاشة السوداء للون الأبيض ثانية وفي منتصفها كان هناك فيديو ولم يكن هناك صور الأطفال التي كانت تملأ الصفحة كالمرة السابقة. تجاهل الفيديو وذهب بعينيه نحو مربع المحادثة وضغط عليه. لم تتغير الصفحة وسمع رنينًا معدنيًا ثم ظهرت على الشاشة الجملة التالية

«شاهد الفيديو أولًا لتتمكن من التواصل معنا»

إذًا فهؤلاء الغامضون يراقبون الصفحة ويعلمون أنه لم يشغل الفيديو. لم يكن أمامه إلا أن يشغل الفيديو. امتلأت

الصفحة كلها بصورة الفيديو، وشعر محسن بالدهشة وهو يرى أن الفيديو يقوم بتصوير سيدة وهي تلد في مستشفى ما. كان هناك الأطباء والممرضات بأزيائهم المميزة من حولها والسيدة التي تلد ساكنة على فراش جلدي بينهم بتأثير المخدّر بلا شك. راقب بدهشة رأس الطفل الذي يبرز من الرحم والأيدي الخبيرة تتلقفه بحنكة. وسمع الصرخة الأولى التي تعلن للوجود بدء حياة جديدة لمخلوق بشري جديد. تقترب الكاميرا من الكتلة الحمراء الصغيرة وتصوّر كيف يقوم الطبيب بقطع الحبل السّرّي، وكيف تقوم ممرضة حسناء بغسل جسد الرضيع قبل أن تلفه بلفافة بيضاء نظيفة.

وجدَ قلبه يخفق بقوة مع ما يراه في الفيديو المذهل. ووجدَ حنينه ورغبته في الإنجاب تتأجج في أعماقه هادرة كاسحة. دمعت عيناه دون أن يشعر، وأمام بصره انتقلت الكاميرا إلي الأم التي أعادوها لحجرتها وقد أفاقت وراحت تضم الرضيع إلى صدرها بشوق وحنان ثم ألقمته ثديها ليرضع، هنا شعر بمن يقف خلفه فوجل وهو يلتفت.

تلاقت عيناه على الفور بعينين طالما أحبهما وحفظ خطوطهما؛ عينين مذهولتين ترمقان ما يشاهده بجمود وقد غلّفتهما دمعات أبت الهطول. كانت أنغام تقف خلفه. أراد أن يقول لها أي شيء وقد شعر بما يعتمل في نفسها فلم يجد ما يقوله. مضت لحظات من الصمت الثقيل قبل أن تتحدث أنغام:

- آسفة يا محسن. لن أستطيع أن أنجب الطفل الذي تتمناه.

ما الذي تفكر فيه بالضبط؟ إنه لم يشغل هذا الفيديو لأن الأشواق لطفل ما تشغل باله. لقد فعلها مضطرًا ليدخل الصفحة ويحادث صاحبها الغريب الغامض، وقبل أن يفسر لها الأمر اندفعت نحو حجرتها مهرولة وقد عجزت عن حبس دموعها وراحت تبكي وتنتحب بلا انقطاع.

كان يعلم أن زوجته تميل للوحدة والانفراد بنفسها إذا غضبت أو حزنت، وتكره حينها أن يحدثها أحد ما حتى لو كان هو. كانت كالقطط، تميل إلى اجترار حزنها بمفردها. نبح الكلب الصغير الذي تقوم زوجته بتربيته والذي خرجَ من المطبخ في تلك اللحظة، كانت تطلق عليه (دودي)، ورغم أن محسن لا يطيق الكلاب ولا يحب تربيتها إلا أنه لم يعترض حين رغبت أنغام قبل عام في اقتناء هذا الكلب، وتربيته، كان يعلم أنها تفرغ مشاعر الأمومة المكبوتة في أعماقها في هذا الحيوان الصغير، حينها اقترح عليها أن تربي قطًا ما بدلًا من هذا الكلب، لكنها أصرت على اقتناء دودي.

ولأن الكلاب تشعر بحقيقة مشاعر البشر نحوها فقد كان الكلب يتبع أنغام في كل مكان وهو يمرح بين ساقيها أو فوق ذراعيها، لكنه لم يقترب أبدًا من محسن وكأنما شعر بأنه في أعماقه لا يحبه. اختفى الكلب في حجرة أنغام بينما قرر ألا يتبعها الآن وأن ينتظر حتى تهدأ قليلًا قبل أن يتكلم معها.

كان الفيديو قد انتهى حينها فضغط على مربع المحادثة الصغير ليتواصل مع محرر الصفحة أو صاحبها الغامض.

وكالمرة السابقة كان ذلك الغامض أول من تحدّث عبر أيقونة المحادثة حيث كتب:

- لا بُدّ أن زوجتك تتألم كثيرًا الآن. لا ألومها في الحقيقية لغضبها أو حزنها. إنها امرأة وكل امرأة تهفو للإنجاب بلا شك.

اتسعت عيناه ذهولًا وجزعًا. هل يراقبهما ذلك الغامض. إن لم يكن يفعل فكيف عرف ما جرى الآن بينه وبين أنغام. راح يتلفت بعينيه في كل مكان في الجدران والأثاث ليرى إن كان هناك كاميرات ما تراقبه. وخاصة أن كاميرا اللابتوب كانت تالفة منذ نحو أكثر من عام، كانت فكرة مخيفة، فكتب محسن بسرعة:

- هل تراقبني يا هذا؟

- ولماذا أفعل يا محسن؟

لكن محسن واصل الكتابة بسرعة في غضب حقيقي:

- كيف عرفتَ أن زوجتي قد أصابها الغضب؟ أنت تتجسس عليّ أيها اللعين.

لكن ذلك الغامض تجاهل غضبه وتساؤلاته تمامًا وكتب له:

- هل راق لك الفيديو؟ كم هي رائعة لحظات الخلق والوجود في الواقع. لا يمكنك أن تشعر بروعتها إلا إذا عايشت ذلك الترقب وتلك اللهفة في انتظار الوليد الجديد، وبخاصة لو كان ذلك المخلوق الصغير هو ابنك.

شعر محسن بالغضب. شعر أن ذلك الغريب ينتهك

خصوصيته وأسراره ومشاعره، وراح يضرب لوحة المفاتيح بأنامل غاضبة سريعة:

- مَن أنت وكيف تعلم كل هذا؟!.. بل وما الذي تريده منِّي.

- أخبرتك أنني أبغي مساعدتك. أنت تريد طفلًا وأنا أستطيع أن أمنحك ما تريده.

- وكيف يمكنك أن تفعل؟ هل تملك عقارًا ما يعالج رحم زوجتي؟

لكن الإجابة كانت غريبة وعجيبة، حيث كتب له ذلك الغامض:

- حياة بحياة، وطفل بطفل.

- ماذا؟ ما معنى ما تقوله؟

لم تكن من إجابة وقد اختفت الصفحة من الشاشة فجأة. فقط كانت هناك صفحة بيضاء تمامًا تملأ الشاشة. شعر بالذهول وأسرع نحو الرابط الذي قام بحفظه من قبل في صفحة الوورد ليفتحها ثانية. ضغط على الرابط فظهر متصفح الإنترنت وفي منتصفه ظهرت تلك العبارة:

«الصفحة المطلوبة غير موجودة».

ووجد نفسَه يغلق شاشة اللابتوب في عنف وحنق حقيقي وهو يصرخ رغمًا:

- تبًا لك أيها اللعين؟

وظلّ بعدها يرمق اللابتوب المغلَق بعيون خاوية لوقت طويل.

4

لا تكف أنغام عن ألعابها الصبيانية وتصرفاتها الحمقاء. وحين عاد محسن لشقته في اليوم التالي من الخارج لم يجدها. بحث عنها في كل مكان، في المطبخ لم تكن به كما اكتشف أنها لم تعد من أجله أي طعام. وفي حجرة نومهما كانت خزانة الملابس الخاوية من ملابسها وأغراضها تمامًا، والحقائب الجلدية المختفية خير دليل على أنها غادرت البيت إلى بيت أهلها. لاحظ كذلك أنها قد اصطحبت معها كلبها دودي، رمق الخزانة الخاوية بضيق وتنهد بنفاد صبر قبل أن يركل أحد قمصانه الذي سقط من الدولاب فطار القميص المكوم ليرتطم بالفراش ثم يتكوم أسفله.

- اللعنة على جنونك. لا تملين أبدًا من تكرار هذا الغضب الطفولي.

قالها حانقًا. كان أكثر ما يزعجه من أنغام أن تترك البيت وتذهب إلى بيت أهلها غاضبة. أمر مزعج للغاية وخاصة أن عليه حينها أن يتودد إلى أبيها وأن يحتمل عجرفته السخيفة التي تصيبه بالسقم. كانت أكثر اللحظات مللًا في الحياة، هي تلك اللحظة التي يجلس فيها أمام حماه مطالبًا إياه بعودة زوجته لبيتها معه. هنا يعرف حماه كيف يثير جنونه بتعاليه وغبائه. يضع ساقًا فوق ساق، يمط شفتيه بتأفف لا مبرر له، وفي النهاية تخرج الكلمات من فمه بطيئة لزجة قادرة على تسميم خرتيت ضخم وإصابته بسرطان المثانة غيظًا:

- ليس قبل أن تعرف قدرَها يا أستاذ. بنات الناس ليست لعبة في أيدي أزواجهم، وليس من حقك يا هذا أن تغضبها كما تشاء. لم أزوّجك إياها كي تهينها وتجرحها في كل لحظة.

ثم يصمت للحظات وكأنما يعدّ نفسه لجولة جديدة من اللزوجة قبل أن يكمل:

- للأسف، لقد خابَ ظنّي بك يا محسن. لم أتخيل أبدًا أن تكون هكذا!

«يا الله! يا مثبت العقول في الجماجم، يا راعي الصابرين المظلومين في السجون وسلخانات المستبدين، امنحني صبرَ أيوب كي لا أقضم عنق هذا الرجل وأنهش أنفه، أو أقتلع عينيه من محجريهما وأربطهما في خيط أعلقه في رقبته، أو أضع حذائي في مؤخرته!»

يتحدث محسن في عقله في غيظ لا حد له وهو يجاهد نفسه كي لا يفعل بحماه كل ما يفكر به، وبينما يواصل حماه حديثه السخيف كان محسن في داخله يتساءل:

«مَن هذا الذي خاب ظنك فيه أيها الغبي؟ وكيف يرى هذا الأحمق البدين الأصلع أني أهين بنته؟!!!»

لا يتذكر محسن أبدًا أنه أهان أنغام يومًا كما يدعي الرجل في كل مرة، دومًا كانت هي من تغضب بلا سبب حقيقي، وفي كل مرة كان محسن يعزو الأمر لحساسيتها المفرطة ولحالتها النفسية المتردية بسبب تأخُّر الحمل والإنجاب. وكان عليه في كل مرة أن يحتمل سخافات هذا الرجل الذي

هو حماه كي لا يزيد الأمور تعقيدًا؛ لذا كان يقول مستسلمًا:

- ومن قال إنني لا أعرف قدرَها يا عمي. إنها أغلى عندي من أي شيء آخر في حياتي كلها. ولهذا أنا هنا لأعتذر إليها لو كنت قد أغضبتها لتعود معي ثانية لبيتها.

يعلم أن الرجل لن يجيبه على الفور، سيتشاغل بإشعال سيجارة، وسينفث دخانها ببطءٍ قبل أن يميل نحوه في النهاية وهو يضيق من عينيه الضيقتين أصلًا واللتين تذكرانه بعيون الضفادع قبل أن يقول في أسف مصطنع:

- صدقني يا محسن. لا أرى أنك تحبها كما ينبغي للراجل الصالح أن يحب زوجته. لو كنت تحبها حقًا وتقدِّرها كما تقول لم تكن لتغضبها ولو بنظرة واحدة أو حرف واحد تتفوه به. كما أنا محبط للغاية وقد خاب ظني بك.

ويواصل محسن الصمت وبداخله حديث متأجج لا ينقطع:

«ليتني أقدر على إحباطك حتى تموت كمدًا، ليتني أملك لزوجة كلزوجتك كي أدفعك للانتحار برباط حذائك. ليتني قادر على تقيدك إلى السقف من رموش عينيك وأن أحرق قدميك بأعواد ثقاب لا تنطفئ كي تحترق ببطء شديد. مهلًا يا محسن، تحلَّ بالصبر. بل بالكثير من الصبر في الواقع».

قال محسن وقد اغتصب ابتسامة من فمه:

- الأزواج يتشاجرون في كل وقت يا عمي. ألا تفعل أنت وحماتي؟ حتمًا تفعل، وهذا لا يعني أنك لا تعرف قدرها.

نهض حماه على الفور ووقف أمامه ببدانته المفرطة وقامته القصيرة وصرخ بفم يتطاير اللعاب منه:

- ومَن أخبرك أنني أفعل؟ إن لي مع زوجتي الحبيبة ثلاثين عامًا لم أغضبها في يومًا قَطّ. في الماضي كنا نعلم قدرَ نسائنا ونعرف كيف نسعدهم. لا أدري في الواقع ما الذي جرى لشباب هذه الأيام. لم يعودوا أبدًا مثلنا.

وعاد محسن لحديثه الحانق في نفسه:

«حتمًا لم تغضبها لأنك تخافها وتخشاها. لأنها سيد البيت الحقيقي وأنت لا تزيد عن تابع أمين لها. حتمًا لن تفعل هذا مهما أغضبتك زوجتك أيها الغبي، لأنها كانت لتطردك من البيت فلا تجد لك مأوى غير الشارع. لو كان هناك عدل في الحياة لكان الشارب من حظها هي وقميص النوم الملوّن من أجلك. أيها الصبر اللعين! بحق كل المقدسات التي آمنَ بها البشر لا تفارقني في هذه اللحظة، وإلا فعلت في هذا الرجل جريمة شنعاء تتحدث عنها الصحف لشهور طويلة».

- يا عمي ومن أين لنا بحكمتك وإخلاصك لحماتي الجميلة. أنت من جيل ذهبي لن يعوض.

هنا يفتل حماه شاربه الرفيع - الذي يجعله في وسامة مهرجي السيرك- زهوًا، ويغمغم وهو يهز رأسه برضا عن نفسه:

- ولهذا عليك أن تتعلم مني. انظر إلى حالي وشاهد كم أنا سعيد في حياتي الزوجية. ثلاثون عامًا يا محسن أرفل في

السعادة والهناء. كل هذا لأنني أعرف كيف أحترم زوجتي وألبي رغباتها ولا أغضبها.

بالطبع على محسن أن يحتمل كل هذا الهراء للنهاية. عليه أن يوافقه على سخافاته حتى تبلغ روحه الحلقوم. كل هذا كي تعود معه أنغام في النهاية ولا يتطور الأمر لما هو أسوأ.

وبينما كان محسن يخرج من حجرة نومه كان هذا الهراء الذي عليه أن يحتمله ثانية هو ما يشغل باله.

في حجرة الأطفال حيث اعتاد أن يجلس، وجد الخطاب المطوي بين شاشة اللاب توب ولوحة مفاتيحه. فتحه متوقعًا ما به. كانت رسالة تركتها أنغام له. وتنهّد بعمق قبل أن يطالع ما بها. حتمًا ستخبره أنها لن تعود ثانية. في الواقع لم يكن مخطئًا في ظنه. فتح الرسالة في بطء وراح يقرأ ما بها.

«لقد رحلت، لكن هذه المرة بلا عودة.

أرجوك يا محسن.. لا تحاول أن تعيدني ثانية كما تفعل كل مرة.. صدّقني هذه المرة لن أستجيب لك، وهذا قرار نهائي.. ولو فكرت قليلًا، لأدركت أنه القرار الوحيد الصائب.

أنت تريد أطفالًا وكذلك أمك وإخوتك، وأنا لن أنجب أبدًا أيّ أطفال.. إذا لتبحث عن أخرى قادرة على منحك ما تريد. لكن طلقني قبلها.. سأنتظر ورقة الطلاق وأرجوا ألا تتأخر في إرسالها».

انتهت رسالتها القصيرة، فألقى جسده على الفراش الصغير في حنق. لا بُدّ أنها ظنت أنه شاهد الفيديو اللعين الذي شغله بالأمس والذي يتحدث عن الولادة شوقًا للإنجاب. بالطبع هي لا تعلم عن أمر ذلك الموقع الغامض الذي يرسل الرسائل له وحتى لو أخبرها بشأنه فلن تصدقه. تبًا لهذا الموقع اللعين ورسائله اللعينة التي بدأت كل هذا. ليته لم يفتح تلك الرسائل وليته لم يدخل ذلك الموقع اللعين الذي لم يغادر مخيلته قَطّ.

ومرة أخرى عاد للتفكير في هذا الموقع ليشغل عقله.

ماذا يريد هؤلاء منه وهل يمكنهم حقًا أن يساعدوه على الإنجاب كما يدعون؟! ولو كان هذا حقيقيًا فما هو الثمن. لا بُدّ أن هناك ثمنًا ما. لا شيء مجاني في هذه الحياة. إنه محاسب بالبنك وهو أكثر من يعلم هذه الحقيقة بحكم عمله مع النقود والأرقام. لا شيء مجاني وبلا مقابل في هذه الحياة.

حياة بحياة وطفل بطفل !

الجملة الغامضة الغريبة التي ختم بها ذلك الغامض الذي يراسله حديثه. ما الذي كان يعنيها ذلك الغامض حين أخبره بهذا. يقتله فضوله لمعرفة الحقيقة، حتى إنه تناسى جوعه الشديد، بل وتناسى أن زوجته قد فارقت المنزل غاضبة. ودون أن يشعر امتدت يده نحو زر تشغيل الكمبيوتر المحمول وضغطه فتوهجت أنواره. وحدق بالشاشة بتوتر في انتظار تحميل نظام التشغيل.

5

لم تكن هناك أي رسائل جديدة في بريده الإلكتروني. حاول أن يعيد استخدام الرابط الذي حفظه، فلم يصل لشيء. الصفحة لا وجود لها كأنما تبخرت من الفيس بوك كله. تصلّب خلف شاشة الكمبيوتر لا يدري ماذا يفعل، وتقلصت أحشاؤه في هذه اللحظة، ربما حنقًا مما يدور وربما تذكرت غريزتها وجوعها ففعلت هذا لتذكره أنها بحاجة للطعام. تحرّك نحو المطبخ ثانية علّه يجد شيئًا ما في الثلاجة يصلح كطعام. كانت الثلاجة خاوية تمامًا إلا من بعض اللبن المعلّب وزجاجتي عصير مغلقتين وبعض الجبن البراميلي الذي تجلبه زوجته من أجلها ولا يحبه هو.

زفر بيأس وهو يغلق باب الثلاجة، وفكر إن كان عليه أن يتصل بمطعم ما للوجبات السريعة ليرسل له إحدى الوجبات، أم أن عليه أن يهبط بنفسه ليتناول غداءه في أحد المطاعم. كان الاقتراح الأخير هو ما يميل إليه. فكر كذلك في الاتصال بأمه أو الذهاب إليها، لكنه أحجم على الفور. لن تتركه وشأنه أبدًا. وستظل تكرر على أذنيه رغبتها السرمدية في حمل رضيع من صلبه، وأملها أن يحدث هذا في حياتها قبل أن تموت وتلحق بأبيه. وبالطبع لن تنسى أن تذكّره أن أباه يتقلب أرقًا وجزعًا في مقبرته مما يحدث. وكأن أبوه ما زال يهتم بما يدور في دنيانا ويتابع بحماس؛ هل أتى حفيده، أم ما زال يأبى أن يفعل.

كانت أمه تخبره أنها ترى أباه في أحلامها في كل ليلة غاضبًا. إنه بالتأكيد لا يكذِّبها في رؤياها هذه. لكن ما أداره أنه غاضب منه كما تقول؟ ألا يحتمل أن يكون غضبه من أخته سماح التي لا تكف عن اصطناع المشاكل مع زوجها؟ ولماذا لا يكون غضبه من حنان أخته الأخرى، والتي لم تزره يومًا منذ موته في مقبرته بحجة أنها لا تحتمل التواجد في المقابر؟ بل وماذا عن أمه نفسها. إنه ما زال يتذكر أن الأمور بين أبيه وأمه لم تكن على ما يرام غالبًا. كانا دومًا في شجار حتى مات أبوه فجأة في حادث سير. ألا يحتمل أنه غاضب منها لأنها ضيعت الكثير من عمره في خلافات لا جدوى منها؟ وهل هو غاضب حقًّا أم تراه مسرورًا لأنه يمرح الآن مع إحدى الحور العين في جنان الله ويسوءه أن تتلاقى روحه في المنام مرة أخرى مع زوجته التي لم تحاول يومًا أن تسعده.

بدّل ملابسه واغتسل قبل أن يخرج. وفي الطابق الأرضى بجوار السلم تعلّق مرزوق بساقه فور أن خرج من المصعد. ابتسم محسن وهو يفتش في جيوبه عمّا يعطيه له. لم يكن معه حلوى، نظر إلى الطفل المبتسم والذي يطالعه بترقب قبل أن يخرج من جيبه نقودًا ناولها له فاختطفها من يده بسعادة غامرة. إنها النقود. السحر الحقيقي في هذا العالم الصغير الذي نحياه. هل أدرك الطفل مع صغره وجهله بحقيقة العالم تلك الحقيقة. فرحته بالنقود تؤكد ذلك. وربما أدرك الطفل أن خيارته هذه المرة أكبر. معه ما يمكنه أن يشتري به الحلوى التي يحبها أو يشتري بدلًا منها لعبة ما. أراد مرزوق أن يعدو

بغنيمته كما يفعل كل مرة، لكن يد محسن قيدته وجذبه برفق نحوه وانحنى له قائلًا:

- ليس قبل أن تعطيني حلواي أيها الشقي!

قبّله الطفل في عجالة، قبل أن يهرول نحو الخارج في نفس اللحظة أطلق البواب العجوز ضحكة مشروخة بحلق نهشه التدخين والجوزة وهو يقول:

- أكرمك الله يا أستاذ محسن. يحبك الولد كثيرًا، ولهذا يفعل هذا معك. صدقني، لا يفعل هذا مع أي أحدٍ آخر في العمارة.

- إنه طفل لطيف وأنا أحبه أيضًا، حفظه الله لك.

يخرج من باب العمارة الحديدي ويسير على الأرضية الرخامية الملساء هنا تصطدم عيناه باللوحة الإعلانية الضخمة التي انتصبت فوق سطح العمارة المقابلة لعمارته. أضواؤها تشتعل بإبهار وكلماتها جلية ومبهمة.

نَهِبُك السعادة ونفعل المستحيل من أجلك..

لكن تذكر دائمًا..

حياة بحياة، وطفل بطفل!

ما هذا الجنون الذي يدور أمام بصره. ومن وضع تلك اللوحة في هذا المكان، ومتى فعل؟؟ كان يراها للمرة الأولى وهو متأكد أنها لم تكن موجودة بالأمس أو حتى في الصباح أو حين عاد. كانت اللافتة ضخمة وملفتة ومن العسير ألا

يلحظها من الوهلة الأولى.

حياة بحياة وطفل بطفل!!!

بدا وكأن هؤلاء الغامضين يطاردونه. هذه المرة هو إعلان لا بُدّ ان يلفت انتباه العالم أجمع بكلماته الغريبة المبهمة تلك. مَن هؤلاء وما الذي يملكونه؟ نقب بعينيه في اللوحة عن وسيلة اتصال بهم. أرقام تليفون ما. أو اسم ما لكنه لم يعثر علي أي من هذه. اللوحة لا تحوي إلا تلك الجمل الغريبة المريبة.

عاد لمدخل العمارة ونادى البواب الذي هرع نحوه على الفور، أشار للوحة بإصبع مرتجف وسأله:

- مَن وضع هذه هنا؟ ومتى فعلَ؟

ضيق البواب العجوز من عينيه وبدا تعبير بالدهشة على وجهه وهو يحك رأسه المتدثر بشال أبيض ملفوف وقال:

- مَن وضع هذه اللوحة؟ إنني أراها للمرة الأولى، مَن وضعها هناك يا ترى؟

- هذا ما أسألك عنه.

- لست أدري يا أستاذ محسن. لم أرَ أحدًا يفعلها. ربما نصبوها هناك أثناء نومي في الظهيرة. يمكنني أن أسأل بواب تلك العمارة. حتمًا هو يعرف.

- افعل هذا من فضلك، وأخبرني بما سيقوله لك حين أعود.

ذهب بعدها لمطعم للوجبات السريعة، يقع في نفس الشارع، وهناك وبشهية معدومة تناول شطيرة لحم قبل أن يذهب للمقهى الذي اعتاد الجلوس فيه مع أصدقائه، وهناك قابل أحمد عبدالشافي. زميله بالبنك وصديقه المقرب، جذب مقعدًا وجلس على طاولته وهو يصفق بيديه للقهوجي الشاب. بادره أحمد وهو يقبض على كوب الشاي الذي أمامه بكلتا كفيه قائلًا وقد لاحظ تعكر ملامح وجهه:

- لا تخبرني أرجوك أن هناك خلافًا جديدًا بينك وبين زوجتك.

زفر محسن في ضيق وهو يجيبه:

- هذا ما حدث بالفعل. لقد ذهبت غاضبة لبيت أهلها مرة أخرى.

أتى القهوجي في تلك اللحظة، فطلب محسن منه إعداد الشيشة التي يشربها من حين لآخر مع كوب من الشاي وحين انصرف القهوجي. قال أحمد بعجب وهو يهز رأسه:

- سبحان الله! مَن كان ليصدق أن ينتهي بكما الحال هكذا. إن قصة حبكما العنيفة والتي امتدت طوال سنوات الجامعة حتى تزوجتما لا تنبئ أبدًا بما يجري الآن. كانت قصة حب أسطورية يا رجل، ظننا جميعًا بعد أن تزوجتكما أنكما لن تختلفا أبدًا.

- لقد اعتقدت هذا أنا الآخر. يبدو أن قصص الحب العنيفة هي الطريق الرسمي لزواج غير سعيد أبدًا.

وافقه أحمد وهو يومئ برأسه وارتشف بعض الشاي قبل أن يقول:

- الكثيرون يتحدثون عن هذا بالفعل. الكثير من حالات الزواج المسبوقة بحب كبير غالبًا مصيرها الفشل. معادلة غريبة لا تُصدَّق لو شئت رأيي، لكن ما الذي حدث هذه المرة. هل أغضبتها؟

حرك محسن كتفيه بالنفي وصمت حين أتي القهوجي حاملًا الشاي والشيشة. مضت لحظات قبل أن ينصرف. أمسك محسن بلَيّ الشيشة وجربها فقرقرت مياهها وانبعث منها دخان أبيض من منافذ تهويتها، قبل أن يسحب منها نفسًا طويلًا ويتحدث:

- المشكلة أني لم أفعل أي شيء قد يغضبها، أشعر أحيانًا أنها ترغب في دفعي في الخلاص منها وتطليقها.

- هل المشكلة سببها تأخُر إنجابكما؟

سأله أحمد، فأخبر أحمد بكل شيء. أخبره عن الرسائل الغريبة والموقع الغامض واليافطة الإعلانية الغريبة. وأخبره ما يعتقده في غضب أنغام منه. تابعه الأخير بعيون ذاهلة قبل أن يقول بتوتر:

- هل ترغب في رأيي يا محسن؟ الأمر خطير يا رجل. ألا تشعر بهذا؟! من هم هؤلاء وكيف وصلوا لك، بل وكيف تسمح لنفسك بالتورط معهم؟؟

سحب محسن نفسًا عميقًا من الدخان وأطلقه من فمه وأنفه ببطء قبل أن يجيب:

- أنا لم أتورط في شيء يا أحمد. أما مَن هم، فهذا ما لا أعلمه.

- ألم تشك أنهم ربما يكونون من المخابرات الأمريكية أو الموساد الإسرائيلي. إنهم يفعلون أي شيء ليجندوا شبابنا كما تعلم.

ابتسم محسن لطرافة الفكرة. ما زال أحمد كما هو دائمًا يخشى الأمن بشدة ويعتقد أن أي اتصال غريب، أو طلب صداقة وتعارف عبر الإنترنت، هو من جماعات أو كيانات تبغي تجنيد الشباب. ظلّ هكذا طوال الجامعة. رفض الانضمام إلى أي من أسَر الجامعة بحجة أنه يخشى أن تكون مخترقة وممولة من جهات أجنبية. يرفض الاشتراك في أي ندوة سياسية لأن أمن الدولة دومًا هناك يراقب ويرى ويسجل. يرفض الحديث عن الفساد لأن (الحيطان لها ودان) كما يردّد دومًا، لقد ارتضى لنفسه أن يوجد حيث توجد السلامة حتى لو كان موقفه في صفوف الفقر والعبودية والقهر، رغم هذا ظلّ أحمد صديقه الوحيد المقرب، فرغم جبنه هذا فهو الشخص الوحيد الذي يثق في صدق محبته له واخلاصه.

أخرج محسن من فمه نفسًا آخر وقال:

- كفى هراء يا رجل. أي مخابرات تلك التي ستجنّدني وما

الذي ترجوه منّي؟

أجابه أحمد وهو يقرب وجهه منه ويخفض من صوته كي لا يسمعه أحدٌ ما:

- ربما يرغبون في الحصول على معلومات عن البنك الذي نعمل به. حسابات العملاء وتحويلاتهم. أرصدتهم. أيّ شيء من هذا القبيل. أنت محاسب في بنك كبير وحتمًا ستكون مفيدًا لهم.

- أنت تعيش في وهم يا صديقي، صدقني لا حاجة للأعداء بالعملاء في عالم اليوم، فالمعرفة متاحة للكل عبر الإنترنت وغيره طوال الوقت.

هز أحمد رأسه في غير اقتناع قبل أن يقول مستسلمًا:

- ربما يا محسن! لكن هذا لا يمنع أن تحاذر في التعامل معهم، وأن تتجنب التورط معهم في أمرٍ ما.

تنهد محسن وغمغم:

- حتمًا لن أتورط معهم في أمرٍ ما، لكن ماذا عن أنغام. هل تقترح أن أبادر بصلحها.

- أرى أن تنتظر قليلًا. ربما هي بحاجة لبعض الوقت كي تهدأ. انتظر يا رجل قليلًا ولا تتعجل.

كان هذا بالفعل ما قرر أن يفعله. لن يطرق الحديد وهو ساخن وهو ساخن، لتبقى هذه المرة في بيت أبيها لبعض الوقت، ومن يدري. ربما كان في هذا بعض العلاج لروحها.

6

حين عاد لمسكنه كان الوقت قبل منتصف الليل بقليل. وحين نظر للعمارة المقابلة لعمارته لم يجد اللوحة الإعلانية فوق السطح. هل السبب هو الليل الدامس وقد سربلها الظلام بعد أن أطفِئت أنوارها لسبب ما، أم أنها بالفعل قد أزيلت من مكانها. لم يستطع من مكانه تحديد أي الاحتمالين صحيح فاقترب من العمارة. بالفعل لم تكن اللوحة موجودة.

ما هذا العبث؟ لوحة ضخمة تقام في الصباح وتزال في الليل؟!

مَن الذي قد يتجشم عناء شيء كهذا، وماذا يهدف بما فعله؟!

رمق الأفق المظلم للحظات قبل أن يعود لعمارته. في المدخل ما زال مرزوق هناك يلعب ويصدر الكثير من الصخب والضوضاء رغم الوقت المتأخر، وعلى مقربة يجلس أبوه على أريكته الخشبية يدخن لفافة تبغ ببطء واستمتاع. يندفع الصغير نحوه فيحيه ويربت على رأسه ويسأل البواب العجوز:

- مَن أزال تلك اللوحة؟

نظر البواب للخارج قبل أن يهز كتفيه ويجيب:

- لا أعلم يا أستاذ محسن. لقد كانت موجودة ثم اختفت فجأة. ربما أزالها أصحابها.

لم تكن الإجابة التي تنتظرها، كان يرغب في إجابة محددة، لكن رائحة الدخان المختلط بالحشيش القادمة بكثافة من لفافة تبغ البواب الصعيدي العجوز، وعينا الرجل الذاهلتان أخبرتاه أنه لن يظفر بأي معلومة ذات قيمة حقيقية من البواب. فتحرك نحو المصعد، وقبل أن يغلق بابه لمح جاره صلاح يهرول نحو مدخل العمارة وخلفه ابناه اللزجان ومن خلفهما تسير زوجته حاملة رضيعها على ذراعيها. لوح صلاح نحوه ليبقى المصعد حتى يصلوا إليه. وضع قدمه على حافة الباب لمنعه من الغلق وانتظر للحظات حتى دلفه الجميع. بينما قال صلاح بمرح وهو يلتقط أنفاسه وكرشه الضخم يرتج مع أنفاسه:

- كيف الحال يا محسن؟ وكيف حال أنغام؟ لقد رأيتها بعد الظهر تحمل حقائبها. هل تشاجرتما مرة أخرى؟

يكره محسن الفضول، وفكر أن يلوذ بالصمت ولا يجيبه عسى أن يشعر جاره بالخجل. لكن صلاح لن يفعل. سيعاود الكرة ثانية وثالثة حتى يحصل على الإجابة التي ترضي فضوله. إنه جاره الذي لا يجهل طباعه. بينما يتقافز الأطفال من حولهم ويتشاجرون ويدفعون بعضهم البعض نحوه، فتمنى محسن لو يركلهم على مؤخراتهم ليكفوا عن ضوضائهم، لاحظ كذلك نظرة مي زوجة صلاح المملئة باللوم والتي ترميها نحو زوجها ليكف عن فضوله ويصمت، لكن الأخير تجاهلها وعاود أسئلته:

- صدقني يا محسن، النساء عقولهن كالأطفال يغضبن

بسرعة ثم يصفحن بسرعة؛ لذا عليك أن تعتذر لها لو كنت قد ضايقتها وحتمًا ستغفر لك. كلنا نعلم أنها تحبك، أليس كذلك يا مي؟

اكتفت مي بالإجابة بكلمات مبهمة وهي تخفض رأسها نحو صغيرها إحراجًا. بينما راح يرمقه محسن في غيظ. ما شأن هذا اللزج به وبزوجته؟ لماذا لا يهتم بشؤونه ويدع الآخرين. أنقذه توقف المصعد أمام طابقه. فهرول من المصعد كي يختفي من أمام صلاح، لكن الأخير صرخ قبل أن يغلق المصعد:

- لو احتجت لأي مساعدة اتصل بي، يمكنني أن أذهب معك لمصالحتها لو أردت.

وكان هذا آخر ما قد يفعله. يولج المفتاح في الباب وهو يتنهد ويغمغم:

- تبًا لك أيها الفضولي الأحمق أنت الآخر.

ثم بدّل ملابسه وشغل اللاب توب ليتفقد بريده الإلكتروني. وهناك كانت رسالة أخرى تحوي رابطًا إلكترونيًا آخر، هذه المرة لم يتردد وضغط عليه على الفور. فبرزت صفحة الموقع النت الغامض أمامه وامتلأت الشاشة بصور الأطفال الذين يشبهون الملائكة. لم يعِرهم اهتمامًا وضغط على المربع الصغير ليدخل مباشرة إلى صفحة المحادثة.

- ها قد عدت. كنت بانتظارك.

هذه المرة كان محسن يشعر بالغضب، فكتب بسرعة:

- مَن أنت أو مَن أنتم؟

- أسئلة لا جدوى منها يا محسن لن تصل خلالها إلى شيء. إنني صديق أبغي مساعدتك ظننت هذا واضحًا.

- ومَن طالبك أن تساعدني؟ لا أتذكر أنني فعلت.

كتبها في حدة، فلم تصله الإجابة هذه المرة على الفور، انتظر لدقيقة ثم دقيقة أخرى وقام بتحديث الصفحة فلم يصله أيُّ ردٍّ، أشعل سيجارًا وعيناه معلقتان بالصفحة وراح يدخن ببطء. مضت نحو عشر دقائق قبل أن يأتيه الرد:

- ليس مهمًا يا محسن أن تطلب. إننا نعرض خدماتنا لمن يحتاجها. بالمناسبة لم تخبرني رأيك في اللوحة الإعلانية. كانت مبهرة أليس كذلك؟

تسارعت أنفاس محسن وشعر أن محدِّثه يعبث به. بينما ارتعشت أنامله على لوحة المفاتيح وهو يجيب:

- لا تخبرني أنك وضعتها ثم أزلتها في نفس اليوم لتبهرني فقط. تصرف أحمق للغاية لو كان كذلك.

- لا تتعجل الإبهار. لم نفعل أي شيء مبهر حتى هذه اللحظة. إنها مجرد محاولة لجذب انتباهك وإشعارك أننا حولك. لنقل إنها حركات مسرحية نقوم بها.

فكّر محسن أن يسأله مرة أخرى عمن يكونون، لكنه كان يدرك أنه لن يحصل على إجابته الآن على الأقل. إذًا لينتظر

قليلًا وليرَ ماذا يريدون منه.

- والنهاية؟! ما نهاية كل هذه الحركات المسرحية التي تفعلونها؟

- النهاية ستكون سعيدة للجميع لو شئت. أنت تشتاق لطفل، ولقد قمت بالفعل بأربع محاولاتٍ للإنجاب دون أن تفلح أيٌّ منها. إن رحم زوجتك أنغام ضعيف. ضعيف للغاية ولن يمكنه بأي وسيلة أن يحتمل جنينًا لتسعة شهور مهما فعلتم. إنها بحاجة لمعجزة حقيقية كي تنجب. وهذا يعني نهاية حب دام لعشرة أعوام. هذا مؤسف بحق.

شعر محسن بالخوف، ذلك الغامض كما يرى يعرف كل شيء عنه وكأنما يراقبه ويعد عليه أنفاسه. هنا قفزَ إلى رأسه خاطر مرعب، هل يساعد ذلك الغامض أحدًا ما. بصعوبة كتمَ تساؤله، قبل أن يكتب بعد هنيهة:

- وأنتم من ستفعلون تلك المعجزة.

- سمها ما شئت، لكن في النهاية يمكننا أن نساعدك في أن تحصل على هذا الطفل.

- وكيف ستفعلون هذا؟

كانت دقات قلبه تتسارع وقد شعر أن إجابات تساؤلاته كلها تقترب:

- ليس قبل أن نعقد اتفاقًا ما، وليس قبل أن تقابل أحد العملاء السابقين لنا.

ابتسم محسن في سخرية وهو يكتب:

- توقعت هذا. لا بُدّ من مقابل ما واتفاق. لا شيء مجانبي بالطبع، لا بأس، لكن هل يمكنني معرفة أي نوع من الاتفاقات هو؟

- ليس قبل أن تقابل ذلك العميل السابق أولًا. استمع إليه، اسأله واطرح عليه كل مخاوفك، وقرّر بعدها هل ترغب في استكمال التواصل معنا أم لا. سوف يتصل بك عملينا في الغد ليحدد موعدًا معك وتقابله. لا تخلف موعدك معه. قابله ولن تندم.

التوتر في قلبه يزداد، والمسألة تقترب من الجد، هل يقابل عميلهم السابق كما يرغبون؟ وهل يتورّط مع أولئك الغامضين في أمور غير قانونية؟ خاطر مرعب؛ لذا فكر في التراجع.

- وماذا لو لم أفعل؟ ماذا لو تجاهلت كل هذا الهراء، وأخرجته من عقلي؟

قالها محسن بتحدٍّ، وبعد لحظات كان الرد السريع الجاهز مكتوبًا على الشاشة أمامه. وكالعادة كان ذلك الغامض الذي يحدّثه سريعًا جدًا في التفكير والكتابة. إجاباته تأتي دائمًا على الفور كأنما يكتبها سابقًا ولا تستغرق أي وقت في التفكير أو الكتابة.

- هذا شأنك وحقك بالطبع. لن نخبرك على التواصل معنا. سوف نختفي حينها تمامًا من حياتك ولن تسمع عنا ثانية. لكن تذكر. لن تنجب أبدًا، ولن يكون لك أطفال في أي وقت.

سوف تطلب أنغام الطلاق وستصر عليه هذه المرة، وسوف تحصل عليه حتمًا. وبعد وقت ليس بطويل سوف تندم كثيرًا أنك لم تكمل اتصالك بنا. هذا كل ما في الأمر يا سيد محسن.

انتهت المحادثة وعلى الفور اختفى الموقع بعدها من أمامه. عادت الشاشة بيضاء من غير سوء. وكما يحدث كل مرة، ظلّ يرمقها بخواء لوقت طويل وعقله حائر متردّد عما عساه أن يفعله. هل يقابل ذلك الشخص الذي أخبره عنه ذلك الغامض أم يتجاهل الأمر. وما الذي سيقدّمه له ذلك الشخص من إجابات يصبو إليها.

هل يخبره من هؤلاء وماذا يريدون؟ ولماذا يلاحقونه هكذا؟

هل هم صادقون حقًا في قدرتهم على مساعدته على الإنجاب، وهل يملكون الحل السحري حقًا لمعاناته؟

الكثير من الأسئلة التي تعصف بتفكيره وعقله.

علم أنه سوف يقابله. وهل يملك خيارًا آخر؟

هناك فجوات تحتاج لسدها. وهناك أسئلة كثيرة تحتاج للإجابات.

7

في العاشرة صباحًا اتصل به ذلك الرجل. عميل أولئك الغامضين السابق! كان في البنك والعجيب أنه كان قد انهمك في عملياته الحسابية المعقدة وقد نسي كل شيء عن الأمر، لكن الاتصال أعاد إليه كل توتره وشكوكه. أخبره الرجل أنه سوف يقابله في نفس اليوم في السادسة مساءً في أحد النوادي النقابية المُطِلّة على النيل لو كان هذا يناسبه. لم يعترض محسن وقد كان الموعد مناسبًا ولم يكن المكان ببعيد عن البنك الذي يعمل به. سوف ينتهي العمل في البنك في الخامسة، ويمكنه أن يذهب مباشرة بعد انتهاء العمل إلى هناك أن يكون في انتظار ذلك العميل السابق. انتهى يوم العمل دون أن يقوم بأي عملٍ حقيقي، لذا تظاهر بالعمل لكنه أجّل إنهاء ملفاته المهمة إلى الغد، كي لا يقوم بكارثة أو خطأ لا يُغتفَر في عمله. كان يعمل دون ذَرّة تركيز. والكل من حوله لاحظوا اضطرابه، ومن حسن حظه أن زملاءه تفهموا اضطرابه وتشتته وأوعزوه إلى الإرهاق الذي كان واضحًا على خلجاته.

وفي تمام السادسة تمامًا كان بداخل ذلك النادي جالسًا على أحد المقاعد المُطِلّة على النيل. الشمس في الأوفق تبدأ رحلة الغروب والمكان هادئ في ذلك الوقت لا يعج بالزبائن والرجل الغامض لم يظهر بعد.

كان قد سأل ذلك العميل، كيف يمكنه أن يتعرفه، لكن

الرجل أجابه أنه يعرف كيف يبدو وأن ينتظره في النادي وألا يقلق. رأى محسن شابًا يتحرك في الممر الحجري الملاصق للطاولات التي يجلس عليها روّاد المكان، تصحبه فتاة نحيفة ترتدي ملابس ضيقة للغاية ولا تكف عن التمايل نحوه والهمس له. ولما لَم يلتفت إليه الشاب حين مرّ بجواره صرف محسن نظره عنه وعاد ليبحث ثانية عن ضيفه في وجوه القادمين. بعد قليل رأى رجلًا عجوزًا أشيب الشعر يتحرك نحوه. كان الرجل يتكئ على عكاز ثلاثي الأرجل، وبدا رثّ الثياب للغاية. رمقه بترقب وقد بدا منظره غريبًا عن المكان. واحتاج الأمر لدقيقة أو أكثر كي يكتشف أنه ليس رجله المنتظر، حين مر الرجل العجوز بجواره دون أن يلتفت إليه هو الآخر ثم جلس إلى إحدى الطاولات وراح يرقب مياه النيل المصبوغة بأشعة الشمس الحمراء الغاربة.

جاءه النادل فطلب منه عصير مانجو. نظر في ساعته التي أشارت شاشتها الإلكترونية إلى السادسة والربع وزفر بتوتر وراح يفكر إن كان ذلك الرجل قد ألغى الموعد أم لا. وفي اللحظة التالية سمع صوتًا من خلفه وفوق رأسه تمامًا يخاطبه:

- أستاذ محسن لو لم أكن مخطئاً؟!

ارتجف في اضطراب رغمًا عنه، وببطءٍ دار برأسه للخلف قبل أن ينهض. ابتسم ابتسامة باهتة وهو يمد يده مسلمًا نحو اليد الممتدة نحوه وهو يهز رأسه، فاتسعت ابتسامة الرجل العذبة وشد على كفه وهو يقول في ودّ:

- أنا شاكر عبدالفتاح، تاجر قطع غيار سيارات في التوفيقية.

أشار إليه محسن ليجلس على المقعد الذي يقابله، قائلًا:

- مرحبًا بك أستاذ شاكر. تفضل بالجلوس.

جلس الرجل وهو يرسم على وجهه ابتسامة عذبة، كان نحيلًا كعود ثقاب، وقد رسم الزمن على وجهه أخاديدَ وخطوطًا تشي بالكثير من المعاناة والألم. لكنّ عيون الرجل كانت تلمع بفرحة حقيقية، لكنها كذلك لا تخفي ألمًا مبهمًا وتوترًا دفينًا. كان يرتدي قميصًا واسعًا بني اللون وبنطالً جينزًا فضفاضًا. لم تكفّ يدا الرجل عن الارتعاش توترًا بالرغم من بسمته الهادئة. وقال فور أن جلس:

- أعتذر عن تأخُري. في الواقع كنت بجوارك بالتحديد في تلك الطاولة التي هناك والتي تجلس عليها زوجتي وأختها.

نظرَ محسن بتلقائية حيث أشار فرأى الزوجة المنتفخة البطن وإلى جوارها جلست فتاة في مقتبل العمر تتحدث وتضحك. عاد ببصره ثانية نحو الرجل الذي أكمل:

- كان عليّ أن أدعك بمفردك لتستجمع رباطة جأشك وتهدأ قليلًا قبل أن أتحدث. في الواقع لم تكن هذه فكرتي، هذا ما طلبوه مني.

ثم نظر حوله ببعض التوتر وكأنه يفتش بعينه عن جواسيس خفيفة قبل أن يستطرد قائلًا:

- أنت تعلم بالطبع عمّن أتحدث؟

هز محسن رأسه بتفهم قبل أن يقول:

- معذرة لسؤالي. لكن كيف تعرفتني؟

أخرج الرجل من جيبه صورة ضوئية مطبوعة، قدمها لمحسن وهو يجيب:

- لقد أرسلوا لي هذه الصورة كي لا أخطئ التعرف عليه. إنها صورة حديثة لك كما ترى.

التقط محسن الصورة ورمقها في دهشة. كان يرتدي فيها بذلته الكحلية التي ارتداها منذ ثلاثة أيام وكان يهم حينها في ركوب سيارته في جراج البنك. كيف حصلوا عليها ومَن التقط له هذه الصورة؟ بل ولماذا يتجشمون كل هذا العناء في مراقبته. تزايد القلق في نفسه وهو يفكر في كلمات صديقه أحمد التي سخر منها بالأمس. هل ينتمي هؤلاء الغامضون للمخابرات أو منظمة مشبوهة وقوية. وهل يَسعَون حقًا لتجنيده؟ ماذا لو كان صديقه محقًا هذه المرة؟ وماذا لو كان يتورط معهم في أمرٍ غير مشروع؟

ارتفعت دقات قلب محسن وبدأت أنامله في الارتعاش وهو يقول بصوت مضطرب:

- أستاذ شاكر، هلّا أخبرتني ما الذي يحدث بالضبط. مَن هؤلاء وما الذي يريدونه منّي وما صلتك بهم؟ حتى هذه اللحظة يبدو كل شيء غامضًا ومريبًا.

ظلت ابتسامة شاكر مرتسمة على وجهه دون أن يبدّدها قلق محسن، يبدو أن الرجل يتمتع بأعصاب من حديد. ويبدو أنه قادر على كبح مشاعره وإخفائها كما يبدو. لم يجبه شاكر على الفور وانتظر ريثما ينتهي النادل من وضع العصير والماء أمام محسن وقد رفض بأدب دعوة محسن له في تناول شراب ما. وحين ابتعد النادل تحدّث شاكر:

- في البداية أريدك أن تعلم أنني لا أعمل معهم. إنا في هذا مثلك تمامًا، كانوا هم من اتصل بي وقدموا لي حينها عرضًا لم أستطع رفضه، ويمكنني بقليل من التفكير التخمين بأنه مماثل لما عرضوه عليك.

تابعه محسن وهو يرشف العصير ببطء ولم يعقب، فواصل الرجل التحدث:

- أعتقد أنك تعاني من مشكلة ما في الإنجاب. أليس كذلك؟

- إنها زوجتي وليس أنا. هل كنت أنت أيضًا كذلك؟

سأل محسن فتنهد الرجل كأنما يزيح عن عقله ذكرى كريهة لا يحب اجترارها. وقال ببطء:

- لم تكن زوجتي. كنت أنا العقيم. مرض مُعدٍ في المراهقة انتهى بتليُّف كامل بالخصيتين. ومنذ البداية أخبرني كل الأطباء بالحقيقة. لقد صرت عقيمًا ويجب ألا أنتظر طفلًا لي في يومٍ ما. كان الأمر صعبًا ومريعًا وخاصة لزوجتي. فهي ككل النساء تعشق الأطفال وتتمنى أن تصبح أمًا في يوم ما.

وصمت للحظة ورمق الأفق الدموي مفكرًا وقد تلاشت بسمته، وكأنما تذكر الرجل ذكرى مؤلمةً ومحسن يراقبه صامتًا. تحرك طفلان بجوارهما يتدافعان ويصرخان على لعبة ما بيد أحدهما فسارت نحوهما سيدة في منتصف العمر. كانت أمهما بلا شك وجذبت كليهما كلًّا بيدٍ بشيءٍ من الحزم وأمرتهما أن يسلماها اللعبة فناولاها اللعبة صاغرين قبل أن تجلسهما قسرًا، وعاد شاكر ليتحدث:

- طلبت زوجتي الطلاق بعد خمسة أعوام من زيارة الكثير من الأطباء بلا جدوى. لم ألمها في الواقع، إنها تبحث عن حقها في الأمومة. فقط كنت أحبها وكان من العسير عليّ أن أتقبل أن تبتعد عنّي للأبد. لا تدري كم كان الأمر مخيفًا للغاية، وغير محتمل.

صمت ثانية بشرود فتحدث محسن ليحثه على مواصلة الحديث:

- هنا ظهر ذلك الموقع، وأخبروك أن بإمكانهم المساعدة.

أطرق الرجل برأسه للأسفل وغمغم بخفوت:

- كنت كالغريق في ذلك الوقت الذي يتلمس أي طوق نجاة. وقد وجدت رسائلهم أمامي فجأة على بريدي الإلكتروني. ارتبت في البداية، وأنا لا أدري كيف وصلوا إليّ، وكيف علموا بمشكلتي. شعرت أنهم يراقبونني، تمامًا كما تشعر أنت الآن، وبعد ذلك وكما يحدث معك الآن قابلت أحدهم وقد أكّد لي أنهم صادقون في قدرتهم على مساعدتي.

كان قلب محسن يقرع صدره كالبطول في تلك اللحظة، وقال بصوت مختنق من الإثارة:

- وهل كانوا كذلك؟!

سأله محسن بترقب، فعادت ابتسامة للرجل لوجهه ثانية، وأجاب وهو يلتفت برأسه حيث تجلس زوجته:

- يمكنك أن ترى بنفسك يا سيد محسن. إن زوجتي حامل في شهرها السادس الآن. لقد كانت معجزة حقيقية يا أستاذ محسن. أحيانًا كثيرة أشعر أنني أحلم وأن كل ما يحدث غير حقيقي. إنهم رائعون بالفعل. رائعون وجيدون للغاية.

ظلّ قلبُ محسن يتواثب في صدره في تلك اللحظة وعقله يتخيل بطن أنغام وقد استدارت هي الأخرى مثل بطن زوجة شاكر وفي أعماقها يرقد الطفل المنشود. ارتجف للحظة قبل أن يقول:

- وكيف فعلوا هذا؟

صمت الرجل للحظة وأبعد بصره عنه ونظر إلى زوجته المنهمكة في حديث لا يسمعه مع أختها ثم نظر للنيل للحظة قبل أن يجيب دون أن ينظر إلى محسن:

- سيطلبون منك أشياءَ تفعلها في البداية. أمورًا قد تكون صعبة وعسيرة للغاية لكنها ممكنة. لكن تذكر، الأمر في النهاية يستحق تنفيذ تلك الشروط الصعبة. لقد تبدلت حياتي تمامًا بعدها ولا أكتمك سرًا أنني وزوجتي عدنا لحياتنا السعيدة

المستقرة ثانية.

وارتجفت يده للحظة قصيرة أدركها محسن وأكمل:

- الأمر يستحق فعل المستحيل نفسه.

الرجل يخفي في نفسه أمرًا ما. ورأى محسن خلف تلك الابتسامة السعيدة المرتسمة طوال الوقت في وجه شاكر، قلقًا مستترًا وتوترًا لا حدّ له. ما الذي لم يخبره به هذا الرجل ؟!

وبترقب عاد محسن ليسأله:

- هل يمكنك أن تخبرني بذلك الشيء الذي طلَبُوه منك في المقابل؟ هل طلبوا الكثير من النقود مثلًا؟

تحاشى الرجل النظر إلى عيني محسن وهو يجيب بعد هنيهة في حزم:

- لا يمكنني أن أخبرك بما فعلته. إنهم يصرُّون على سرية الأمر، وألا أتحدث عن اتفاقي معهم. فقط يمكنني أن أؤكّد لك أن الأمر لا يتعلق بالنقود!

أدرك محسن أن شاكر لن يخبره بالمقابل الذي دفعه من أجل الحصول على طفل، كما لم يطمئنه تأكيد شاكر أنهم لن يطالبوه بمقابل مادي. لا بُدّ من مقابل، ووجه الرجل - رغم كل هذا الهدوء الذي يحاول طبعه على خلجاته - يشي بأن المقابل سيكون عظيمًا، وجد نفسه يقول في هدوء:

- إذًا من يكون هؤلاء الغامضون؟

- لا أدري حقًا يا أستاذ محسن. لكن صدّقني، حين يتحقق أملك في الحصول على طفلٍ وحين ترى كم صارت زوجتك سعيدة فلن تهتم بمن يكونون. حتى لو كانوا الشيطان نفسه.

ثم مالَ نحوه وسأله وعيناه تنظران إلى عينيِ محسن في ثبات:

- معذرة لتطفلي، لكن هل تحب زوجتك بحق؟

- لقد تزوجنا بعد قصة حب طويلة يا أستاذ شاكر. لك أن تتخيل الأمر.

- إذًا افعل أي شيء كي تسعدها ولا تفقدها. نفِّذ ما سيطلبونه منك ولا تتردد. تذكر كلماتي هذه. السعادة تستحق تقديم تضحيات صعبة وتنازلات كبيرة.

كلماته غريبة لم تطمئنه قدر ما أقلقته. ما الذي سوف يطلبونه منه. يتوقع أمرًا مخيفًا أو عسيرًا. لكنه يعلم أنه سيقوم به لو كان ممكنًا. وعاد طيف زوجته ببطن مستديرة وابتسامة راضية على وجهها ليطفو على سطح عقله. هام في الحلم الجميل للحظات، تركه خلالها شاكر لنفسه وكأنه يعلم ما يدور في ذهنه، مضت نحو الدقيقة من الصمت حين قفز لعقل محسن تساؤل أخير، طرحه على شاكر على الفور:

- كل هذا رائع كما يبدو. لكن ما أدراني أنك صادق معي، وأنك كنت من قبل عقيمًا لا تنجب.

ابتسم شاكر ورفع حقيبة جلدية من أسفل الطاولة لم ينتبه

لها محسن في البداية. فتحها، وأخرج منها أوراقًا كثيرة قدمها لمحسن قائلًا:

- هذه كل التحاليل والفحوصات التي خضعت لها. خذها كلها وراجعها مع نفسك أو اعرضها على طبيبٍ ما. كلها ستخبرك كيف كان الأمر بلا أمل. هناك أيضًا وصفات الأطباء الذين ترددت عليهم، يمكنك الاتصال بهم وسؤالهم عن حالتي لو شئت. خُذْ هذه الأوراق السخيفة وافعل بها ما تشاء فلم أعد بحاجة لها بعد الآن.

قالها ثم نهض دون وداعٍ وتحرّك نحو زوجته، راقبه محسن للحظات ثم نظر للملف الضخم من الأوراق الذي أمامه، كان يشعر أن الرجل صادق في حديثه، لكن السؤال الذي أرّق تفكيره، ما هو المقابل الذي عليه تقديمه لأولئك الغامضين؟

8

تصرخ في وجهه أمه بغيظ:

- إياك أن تذهب إليها. لن أسامحك أبدًا لو فعلت. لقد أقدمت هي على الأمر وطلبت بنفسها الطلاق، فلا تضيع الفرصة. دعها وتزوج بأخرى تمنحك طفلًا:

كان يزور أمه وشعر أنه أخطأ حين أخبرها بهجر زوجته له. بالطبع نسي أن أمه لن تفوت فرصة كهذه. يبدو أن أمه لا تفكر في هذه الأيام إلا في طلاقه.

يقول متململًا في كرسيه الوثير الأمريكي الطراز:

- كفى يا أمي من فضلك. يكفيني ما أعانيه. أنا أحب أنغام ولن أطلقها أبدًا. أنت خير من يعلم هذا.

- وماذا عن الأطفال؟ هل ستعيش هكذا معها منقطعًا بلا عقب أو ولد؟

- هناك حل طبي جديد يا أمي. حل نهائي هذه المرة. أعدك بهذا.

قالت أمه وهي تلوح بكفيها في امتعاض:

- حلٌ يستنزف المزيد من أموالك وأعصابك!

نظر إليها محسن في ضيق وهو يسأل:

- وهل زواجي من أخرى لن يستنزف المزيد من الأموال والأعصاب؟!

- على الأقل لن تكون عقيمًا، وستمنحك الكثير من الأطفال.

- وما أدراني أنها ستفعل. كما أن أنغام ليست عقيمًا، إنه رحمها فقط الذي يعاني بعض الضعف.

يقولها بنفاد صبر. تمصمص أمه شفتيها وتقول بإحباط مصطنع:

- لكنها في النهاية لن تنجب طفلًا.

يصمت ويغير مجرى الحديث نحو أمرٍ آخر كي لا يحنقها، وبعد ساعة يرحل متجهًا إلى بيت حماه، سيطالبها بالعودة معه وسيحتمل لزوجة وسخافة حماه هذه المرة أيضًا.

لاحظ محسن أنه صار متشككا، وأنه طوال الوقت ينظر لكل من حوله بارتياب، ولا يكف عن التلفت للناحيتين أو النظر للخلف. من يراه هكذا كان ليحسبه مجنونًا، لكن إحساسه بالمراقبة، وأن هناك مَن يحصي خطواته أزعجه كثيرًا. لقد صوّروه من قبل، وقبلها علم ذلك الغامض الذي يحدثه أن قد تشاجر مع زوجته، ومن قبل علموا بكل معاناته في رحلة البحث عن الإنجاب..

إذا هناك من يراقبه! ولهذا وجد نفسه يشك في كل من حوله ويبحث ببصره عن ذلك المجهول الذي يتبعه.

فتحت له زوجته الباب، بعد أن رن الجرس. بدت الدهشة على وجهها للحظة ورأى الكثير من الفرحة في عينيها وإن نجحت في عدم إظهار تلك الفرحة على ملامح وجهها. ابتسم

في وجهها وقال في حنان:

- لقد اشتقت إليكِ.

اختلجت شفتها السفلى اضطرابًا من كلماته، لكنها تهربت من عينيه وابتسامته، وهي تدير وجهها للناحية الأخرى وتغمغم:

- بابا بالداخل. يمكنك أن تنتظره بحجرة الصالون. سوف أخبره أنك قد أتيت.

ثم حاولت أن تتحرك بسرعة نحو الداخل لتهرب منه، لكنه قبضَ على معصمها وأوقفها وهو ويهمس:

- مهلًا يا حبيبتي، انتظري! أريد أن أحدّثك.

جذبت يدها من كفه، ونظرت لعينيه في شيء من التحدي ممزوجة بمرارة حقيقية وتقول:

- لم يعد هناك ما يقال يا محسن. لقد انتهى كل شيء بيننا.

وقبل أن يرى دموعها ابتعدت عنه واختفت داخل المنزل، كان يدرك مقدار ما يعتمل في نفسها من اضطراب، فلم يتحامل عليها وأغلق باب الشقة من خلفه واتجه إلى حجرة الصالون. انتظر هناك لنحو عشر دقائق ثم ظهر حماه، ببدانته وسلطعته السخيفة. كان متجهمًا، يرتدي قناع الصرامة والحزم الزائفين. بصعوبة تمالَكَ محسن نفسه كي لا يضحك ساخرًا من هيئة الرجل واصطناعه الجدّ وهو ينهض ليسلم عليه. ثم بادره الرجل صائحًا بلا مقدمات:

- أرجو أن تكون قادمًا يا أستاذ محسن لتخبرني أنك ستطلق ابنتي. هذا هو الشيء الوحيد الذي سأقبل أن أستمع إليه منك.

ثم جلس على أحد المقاعد ووضع ساقًا فوق ساق وهو ينظر للسقف ويتنهد بضيق، يعلم محسن أنه يفتعل كل هذا. وأنه لا يتحدث بلسانه، بل يتحدث بلسان زوجته وما أملَته عليه في تلك الدقائق العشر قبل أن يدخل. انتظر محسن للحظات قبل أن يبدأ حديثه:

- وما الذي حدث كي أطلّقها يا عمي. لا أذكر أنني فعلت أمرًا واحدًا ما قد يغضبها أو يدعوها لفراق البيت.

- أمر واحد فقط، يا رجل! لا بُدّ أنت تهزل. لقد فعلت أمورًا كثيرة وليس أمرًا واحدًا.

- أخبرني ببعض تلك الأمور إذا. ربما فعلت دون أن أدري.

يقولها محسن محاولًا كتمان حنقه وغيظه بداخله، ويجيبه حماه على الفور:

- وما أدراني بها؟! أتراني أعيش معكما لأعلم كيف تعيشون. لكن ابنتي لن تترك البيت وتطلب الطلاق إلا لسبب قوي.

- يا عمي. لم آتِ إلى هنا للطلاق. ما زلت أحب زوجتي ولا أبغي فراقها. لقد أتيت لأعتذر إليها عن أي خطأ قد أكون اقترفته في حقها دون أن أشعر.

يحرك حماه حاجبه لأعلى بحركة يكرها محسن حين يراها

ويميل نحوه قائلًا بصوت مرتفع:

- وهي لا ترغب في اعتذارك. كل ما تطلبه منك هو الطلاق. الطلاق فقط.

يستدعي الصبر ويسأله أن يلازمه ولا يغادر. متى تواتيه الفرصة كي يلكم ذلك الرجل في أنفه. يكتم نفسًا طويلًا من الهواء في صدره، ثم يزفره ببطء، ويقول:

- هل يمكنني التحدث إلى أنغام؟ أريد أن تخبرني بنفسها بما أغضبها؟

- أنت تتحدث إليّ أنا يا هذا، ولا شأن لك بها. إنني أبوها وولي أمرها، وقد أخبرتني بما تريده.

- إنها ما زالت زوجتي يا عمي ومن حقي أن أحدّثها في أي حين.

في تلك اللحظة ظهرت أنغام من خلف باب حجرة الصالون، لا بُدّ أنها كانت هناك منذ البداية تستمع لحديثهما، وصاحت في وجهه بغضب حقيقي:

- لماذا ترفض أن تطلقني؟! لقد تزوجتك في البداية لأني كنت أحبك، وكنت أرى أن سعادتي ستكون معك، والآن لم أعد أشعر بتلك السعادة معك. بالفعل صرت أفتقدها.

وتهدج صوتها وبدأت دموعها في الانهمار، وأكملت:

- أرجوك يا محسن، لا تجعل الأمر صعبًا. هذه المرة قراري نهائي. لن أعود إليك أبدًا مهما فعلت. لقد انتهت حياتي معك

تمامًا. الطلاق هو الحل الوحيد الصائب الذي يمكننا أن نفعله الآن. دعنا نفترق ونحن ما زلنا أحباء، خير من أن يأتي اليوم الذي تكرهني فيه لأني حرمتك الابن، أو أكرهك لأنك بحثت عن أخرى تهبك طفلًا تريده.

يزداد نحيبُها ويبدأ جسدها في الارتجاف وقد وقفت أمامه كالصنم. يتمنى محسن لو يحتويها بين ذراعيه ويهدهدها مطمئنًا. لكن شيئًا منعه من فعل هذا. شيئًا أشعره أنها لا تريده الآن، فجوة سوداء تتسع باضطراد وتفصل بينهما بقسوة. وبدلًا منه يندفع حماه نحو ابنته ويحتضنها وهو يقول في ظفر:

- أعتقد أن الأمر صار منتهيًا كما ترى يا محسن. هي لا تريدك وتريد الطلاق. لا أعتقد أن هناك ما يقال بعد ذلك. إنني أنتظر منك أن تطلقها دون مشاكل. ولو رفضت فهناك المحكمة بيننا وسوف تنفصل عنك بالطلاق أو الخلع. والآن أخبرني ما قررته؟

9

عاد للمنزل حاملًا وجبة غداء اشتراها، وفي مدخل العمارة كان مرزوق ما زال كعادته يلهو ويلعب. رآه الطفل قادمًا فاندفع نحوه وعيناه معلقتان بالكيس البلاستيكي الذي يحمله. فغمغم محسن وهو يربت على رأسه:

- كيف الحال أيها الرجل الصغير؟ لكن ما هذا الذي أراه؟. لما ترتدي مثل هذه الملابس المتسخة. اذهب وأخبر أمك أن تبدّل ملابسك وأن تغسل وجهك ورأسك.

كانت ملابس الطفل متسخة للغاية ومليئة بالبقع وخاصة البنطلون القصير الذي يرتديه، وفاحت من جسده رائحة عطنة مقززة، شعر محسن بالإشفاق نحو الطفل الذي يفتقد دومًا للنظافة والاهتمام. تلقيه أمه في مدخل العمارة كل صباح حيث يظل يلعب ويلهو وهو ينتظر ما يجود به السكان عليه من مال أو طعام، هكذا سوف يمضي طفولته، وبعد أعوام قصيرة وحين يشب قليلًا عن الطوق، سيفعل به أبوه ما فعله بإخوته من قبل؛ سوف يذهب به إلى أحد الحرفيين ليعلّمه حِرفة ما، إن أخاه الكبير منتصر يعمل سباكًا والثاني لحّامًا كما يذكر، والثالث، والرابع.. كلهم كذلك. لن تكون هناك مدرسة يتعلم فيها الهجاء والرسم والحساب، ولن يكون هناك أمل في أن يصير يومًا طبيبًا أو مهندسًا أو مدرسًا أو غيره، سيظل يعيش على هامش الحياة كحشائش الأرض، لن يكون يومًا شجرة سامقة تسر الناظرين أو زهرة حلوة يفوح عبيرها

فيسكر المنتشين، وبعد أعوام أخرى سيتزوج هو الآخر مثل أبيه وسينجب أطفالًا كثيرين لن يجتهد في تربيتهم وسيفعل بهم ما فعله به أبوه من قبل. كانت دائرة مفرغة لا فكاك منها.

انتبه إلى الصغير الذي أشار للكيس البلاستيكي بإصبع ملوث بالطين وقال بخجل:

- ماذا تحمل معك؟

يرفع الكيس وهو يبتسم من (النغزة) التي تميّز خديّ الصغير من الناحيتين حين يبتسم، ويشير إليه قائلًا:

- إنها شطائر، هل ترغب في بعضها؟

يهز الصغير رأسه بالموافقة على الفور وابتسامته تتسع، فيناوله شطيرة لحم مشوي. يتركه يقضمها بفرح وهو يصعد لشقته. يضع الشطائر على الطاولة ويبدل ملابسه ويذهب إلى الحمّام كي يغتسل ثم يعود ليجلس على الفراش حاملا الطعام، ويشغل اللاب توب. تتلون الشاشة وهو يقضم الشطيرة بتأنٍّ وبطء، ثم يفتح البريد الإلكتروني حيث يرى هناك رسالة جديدة بلا عنوان كما كان يتوقع. فتح الرسالة، وكالعادة وجد هناك الرابط الإلكتروني فقط بلا تمهيد أو تفسير. ضغط عليه. دخل الصفحة الغامضة ولم يعِر لما بها اهتمامًا وضغط على المربع المؤدي لدخول المحادثة، وعلى الفور ظهرت أمام عينيه الذاهلتين الرسالة الأولى:

- هل ترغب في أن نؤجل حديثنا حتى تنتهي من طعامك أم يمكنك الحديث وأنت تأكل؟

يتوقف فمه عن المضغ ويدور رأسه بتلقائية في المكان بتوجس، وقلبه ينبض بلا انتظام للحظات. إنهم يرونه الآن بالفعل. إنهم يراقبونه في حجرته، وبأنامل مرتجفة كتب:

- كيف تراقبني يا هذا وتعرف كل ما أفعله؟ هل لديك كاميرات خفية مخبأة بالبيت.

- لا تقلق يا محسن. لسنا بحاجة للكاميرات كي نراقبك. إننا نعلم أي شيء نريد أن نعلمه. ونرى كل شيء نرغب في رؤيته، لا تدع تلك الأمور البسيطة تشغل بالك ودعنا نتحدث مباشرة في أمرك.

- ليس قبل أن أعلم من أنتم؟

- ألا تمل من طرح هذا السؤال؟

- وأنت ألا تمل من المراوغة في الإجابة.

ثم عاد ليمضغ الطعام وقد أخرج شطيرة جديدة من اللحم المحمر هذه المرة. ومضت بعدها دقائق من الهدوء بلا رسائل جديدة، هل انتهت المحادثة هذه المرة؟ تساءل محسن وهو ينتهي من الشطيرة، لكن المحادثة لم تكن قد انتهت في الواقع، فلقد ظهرت رسالة جديدة.

- لقد قابلت شاكر ولا بدّ أنه قد أخبرك عنّا، وبما فعلناه معه. هل تصدق أنه كان عقيمًا تمامًا. كان الأمر كالسحر حقًّا أن تعود خلاياه التناسلية للعمل ثانية، ويصير قادرًا على إفراز الكثير من حيواناته المنوية القادرة على إخصاب بيوضات

زوجته. لقد صار أكثر الناس سعادة الآن. سعيد للغاية هو وزوجته.

- وماذا عن المقابل؟ ماذا قدّم لكم لتفعلوا هذا السحر الذي تدعيه؟

- فعل ما طلبناه منه بلا تقصير. تمامًا كما سيكون عليك أن تفعل لو شئت الاتفاق معنا. إننا نعقد الصفقات الرابحة التي تسعد عملاءنا. هل تعلم أن السبيل الوحيد كي تحافظ على زوجتك أنغام ولا تطلقها أن تعقد اتفاقًا معنا.و... و...

قاطعه محسن بضيق، وكتب بسرعة وأصابعه تضرب لوحة المفاتيح بعنف محمل بالغضب والسخط:

- لا شأن لك بزوجتي.

لكن ذلك الغامض لم يلتفت لاعتراضه وأكمل:

- صدقني، لقد عقدت زوجتك العزم على الطلاق فلا تنتظر منها أن تعود ثانية. هذه المرة تختلف عن المرات السابقة. أعتقد أنك أيقنت هذا بعد زيارتك لها بالأمس. لقد انتهى الأمر معها ولا سبيل للعودة ثانية للوراء إلا بمعجزة.

لم يعد يشغله كيف يعلم كل شيء ذلك الغامض عنه. كان الرجل صادقًا معه. وما رآه اليوم في عيني أنغام من جفاءٍ أكّد له هذا. إنها بالفعل لن تعود إليه ثانية. كان قلبه يرفض أن يصدق لكن عقله يؤمن أن هذا ما يحدث الآن.

هل تكون الصفقة أو الاتفاق الذي يعرضه عليه ذلك الرجل

المستتر خلف هذا الموقع الغامض حلًا لجميع مشكلاته بالفعل؟ تمنى لو أن هذا ممكنٌ.

- وما هو المطلوب منّي الآن إذا أردت عقد الاتفاق؟

- شاهد هذا الفيديو أولًا.

وظهر في نافذة المحادثة رابط إلكتروني، ضغط محسن على رابط الفيديو الذي ظهر أمامه. ولدهشته وجدَ أنه فيديو لمرزوق! ابن البواب!

شاهده بذهول وهو يفكر. ما شأن مرزوق بالاتفاق وهذا الأمر؟

في الفيديو كان الطفل يمرح كعادته في مدخل العمارة ويمدّ يده لكل ساكن فيها حين يراه ليطالبه بنقود أو طعام، ثم تبدّل المشهد حيث ظهر مرزوق وهو يلتقط من صندوق النفايات الملاصق للعمارة شيئًا ما. تقترب الكاميرا فيلاحظ محسن في اشمئزاز أنها تفاحة تخلّص منها أصحابها وقد أصابها العطب. الغريب أن الطفل لم يبالِ بتلوّثها ولا رائحتها النتنة، ومسحها بكفه غير النظيفة أصلًا قبل أن يقضمها. فارقته شهيته للطعام فترك شطيرته واستمر في المشاهدة. كان المشهد الثالث يصور الطفل وهو يلهو في الشارع، ومن بعيد تأتي دراجة النارية مسرعة وفي لحظات تصطدم به. تعلو الصرخات ويهرع المارة نحو مكان الحادث. الدماء تتفجر من رأس الطفل بلا انقطاع وقائد الدراجة النارية يصيح بين الحشود الغاضبة أن الخطأ ليس خطأه، وأن الطفل

هو مَن تحرك نحوه فجأة. ويرى محسن بدهشة كيف وضعت أم الطفل الكثير من البن على رأسه لتوقف النزيف قبل أن تربطها بمنديل قذرٍ. ثم تضرب الطفل على مؤخرته وتطالبه بصوت واضح ألا يلعب في الشارع ثانية.

كان محسن قد علمَ بأمر تلك الحادثة التي جرت منذ شهرين تقريبًا، لكن تلك التفاصيل يراها للمرة الأولى.

انتقل الفيديو بعدها إلى إخوة مرزوق. كلهم كانوا يُضربون من (أسطواتهم) الذين يعملون معهم ورأى محسن بدهشة الأخ الأكبر لمرزوق المدعو منتصر وهو يدخن ويبتلع أقراصًا كثيرة. هل يدمن هذا الصبي الأدوية المخدِّرة، ثم انتقلت الكاميرا في النهاية إلى أخٍ آخر لمرزوق يدي سعيد. لا يتعدى السنوات العشر وقد صوّرته الكاميرا وثلاثة صبيان أكبر منه يقيدونه بأيديهم إلى الأرض ليأتي رابع ويقوم باغتصابه. فشعر محسن بالكثير من الغثيان مما يراه وشعر بالحمض يصعد في جوفه حاملًا معه الشطائر التي تناولها منذ لحظات.

انتهى الفيديو فاختفى من الشاشة أمامه، وعادت نافذة المحادثة لتملأ الشاشة، لتصله رسالة جديدة:

- والآن ما رأيك؟

- في الواقع أنا لا أدري ما شأن أبناء البواب بنا.

- شأن وثيق ستدركه بعد قليل. فكما رأيت؛ هؤلاء هم أبناء بواب عمارتك. أبناؤه الكثيرون الذين لم يتعب كثيرًا

في إنجابهم ولم يفكر قبل أن يأتي بهم للحياة كيف سيقوم بتربيتهم وهل سيقوم بتعليمهم، وكيف يؤمّن لهم حياة أفضل. لم يفكر بالتأكيد في شيءٍ من هذا، وكل ما فكّر فيه حتمًا هو الإنجاب فقط. أن يكون له أبناء كثيرون ولا يهم ماذا سيكونون بعد ذلك. لو شئت رأيي فهو لا يستحقهم، كما أنهم لا مستقبل لهم في الحقيقة. الكبير -كما ترى- أدمن الأقراص المخدرة، وبعد قليل سيكون عليه أن يدبر المال كي يحصل عليها. عمله كصبي سباك لن يوفر له ما يحتاجه من المال، إنني أترك الأمر لخيالك لتدرك كيف سيحصل عليه؟

لم يكن التخمين صعبًا. سيسرقه أو يحتال للحصول عليه. لم يعقب محسن واستمر في متابعة الكلمات التي تتراصّ أمامه:

- إن هذا الطريق المشؤوم لا يقتصر على الكبير فقط. كل إخوته من بعده سيطرقون الطريق ذاته. فلا أب يراقب ويردع. بل هناك أبوان لا يهمهما إلا تحصيل الأموال التي يجنيها الأبناء ولا يهمهما ما يفعل الأبناء بعدها. ولهذا فهما لا يستحقان هؤلاء الأبناء وكذلك لا يستحق الأبناء هذا المصير الأسود الذي ينتظرهم.

توتر محسن وهو يفكر في ما يصبو إليه الرجل وكتب:

- وما شأني بهذا؟

- أنت تستحق طفلًا ولا تملكه وهم يملكون أطفالًا لا يستحقونهم. أعطنا طفلهم الصغير نعطيك طفلاً.

ارتجف من هول الكلمات المقبضة الرهيبة. هل ما فهمه عقله صحيح أم أنه يبالغ في تخوفاته. وكتب بسرعة مستنكرًا:

- لست أفهم مقصدك. ماذا تعني بأن أعطيك طفلهم الصغير؟

- حياة بحياة، وطفل بطفل. هذا هو الاتفاق. قدّم لنا مرزوق نقدّم لك ابنًا يسعدك.

كان جنونًا لم يحتمله محسن. اتسعت عيناه فزعًا ودون أن يشعر أغلق شاشة اللاب توب في عنفٍ واستنكارٍ لا حدّ له، وأنهى المحادثة على الفور وصدره يعلو ويهبط بلا انقطاع.

ما هذا الجنون الذي رآه منذ قليل؟

ولوقت طويل بعدها ظل في مكانه بعينين ذاهلتين وهو يلهث في اضطراب كبير.

10

قرر محسن تجاهل الموقع تمامًا. إنهم مجموعة من المجانين القتلة المجرمين. لا يوجد لديه توصيف دقيق لهم غير ذلك. إنهم يطالبونه بارتكاب جريمة بشعة كي يحصل على الطفل الذي يصبو له. يعطيهم حياة لا يملكها ليعطوه الحياة التي يتمناها.

لن يفعل أبدًا مثل تلك الجريمة مهما حدث، حتمًا سيجد وسيلة أخرى يحل بها مشكلته، ربما تلين زوجته في النهاية وتعود إليه. وربما يكتشف الأطباء في القريب العاجل حلًا لمشكلة زوجته. إن العلم يتقدم بسرعة مخيفة ولا أحد يدري كيف سيكون الأمر بعد أعوام قليلة من الآن.

لكنه في اليوم التالي لتلك المحادثة المشؤومة وجد رسالة جديدة على بريده الإلكتروني. فكّر في أن يحذفها دون أن يفتحها وقد قرّر أن يتناسى أمرَ هؤلاء الغامضين المجرمين برمته. لكن من يقدر على الفضول الذي يُسيِّر أغلب البشر ويدفعهم لفعل ما لا يرغبون فيه.

لهذه نراه وقد فتح الرسالة. هذه المرة كانت رسالة حقيقية وأسفلها رقد الرابط الملعون الذي يؤدي لصفحة المحادثة المشؤومة بثبات مستفز. راح يقرأ الرسالة الإلكترونية:

«أستاذ محسن.. نتمنى لو تفكر جيدًا في العرض الذي قدمناه لك. وألا تتعجل بالجواب الذي قد تندم عليه. أمامك أسبوع من الآن. لو وافقت فكل ما عليك هو أن تضغط

على الرابط أسفل الرسالة لنخبرك بما عليك أن تفعله. إننا محترفون ونعرف جيدًا كيف نخطط الأمر، وكيف نحمي عملاءنا. ولو رفضت فسينتهي العرض. ستختفي الرسالة تلقائيًا ولن نتصل بك ثانية. أمامك أسبوع واحد لتفكر، وتذكر أننا بانتظارك».

شعر بغضب كبير يعتمل في نفسه. أي تفكير وقرار ينتظره هؤلاء الملاعين. هل يعتقدون أنه سفاح أو مجرم لتقتل طفلًا بريئًا، بالطبع لن يفكر في أي شيء من تلك الأوحال. لقد انتهى الأمر له، الرفض هو قراره النهائي. لكن ما أدهشه بالرغم من تصميمه على عدم قبول العرض الشرير أنه لم يقم بحذف الرسالة من بريده الإلكتروني. هل يعني هذا أنه قد يعيد التفكير ثانية في الأمر؟ هل يعني ما فعله هذا أن رغبته في الإنجاب قد تدفعه لفعل أشياء لا يرضى عنها. شعر بالعجب من نفسه وحاول تجاهل الأمر.

لم تدعه أمه لحاله وظلت تلح عليه كل وقت في الطلاق. أرسلت أختاه هناء وسلوى كي يقنعاه بالأمر. تلطف معهما في الحديث دون أن يعدهما بشيء. وبعد ثلاثة أيام عاد من عمله ليجد جاره الفضولي صلاح بانتظاره أمام باب العمارة ومعه ابناه الأحمقان وهما يتصارعان طوال الوقت ولا يكفان عن افتعال المشاجرات. وبادره صلاح فور أن رآه:

- أين أنت يا رجل؟ لقد اتصلت بك مرارًا على هاتفك المحمول، لكنه دائمًا كان مغلقًا. فلم يكن هناك إلا أن أنتظرك هنا كي أراك.

خشي محسن أن يكون صلاح بانتظاره ليحدّثه مرة أخرى عن استعداده لمصالحته على زوجته. لا يحب الفضوليين ولا يهوى تدخل أي شخص في أموره الخاصة؛ لذا قال باقتضاب دون أن يبتسم:

- هل حدث شيء ما؟

- لقد جاءت إليك هذه، ولما لم تكن موجودًا استلمتها من أجلك.

ناوله الورقة التي كان يطويها في جيبه. ورقة رسمية تفوح منها رائحة العرائض والدواوين الحكومية والمحاكم. وبينما يفضها محسن ظلّ صلاح يتحدث إليه:

- لقد ضايقني ما بها. لا يجب أن تنتهي الأمور هكذا بينك وبين أنغام. المحاكم ليست المكان المناسب لحل النزاعات في رأيي.

طالع الورقة الكئيبة المصبوغة في أسفلها بخاتم النسر والمزدانة في أعلاها بالطوابع التي لا معنى لها. كانت دعوى طلاق أقامتها زوجته ضده. جُنّ جنونه ولم يلتفت إلى صلاح الذي كان في هذه اللحظة يحدّثه عن استعداده للتدخل في الأمور والمساعدة في حل المشكلة. اندفع نحو سيارته وتحرك نحو بيت أهل زوجته.

رفضت أنغام أن تخرج له أو تحدثه. كانت موجودة بالداخل. يعلم هذا وعبيرها الذي لا يخطئه يملأ أنفه. حاول

حماه أن يكون حازمًا في كلامه لكن محسن صرخ في وجهه فأخرسه تمامًا. لا وقت لاحتمال هذا الهراء. راح محسن يتحدث في ثورة حقيقة، بينما يتراجع أمامه حماه في خوف حقيقي:

- أريد زوجتي. أعلم أنها بالداخل. أنغام!.. إنني هنا! أخرجي لي وحدّثيني. هل ترغبين في الطلاق حقًا. لن أطلقك ولو أقمت ألف دعوى طلاق لن أفعل. لن أطلقك أبدًا. هل تسمعين؟! لن أطلقك.

كان يصرخ، وحاول حماه وهو يتراجع أمامه أن يهدئه فغمغم بصوت خافت:

- لا فائدة مما تفعله يا محسن. إنها رغبتها والأمر قد آلَ إلى المحكمة وهي التي سوف تفصل بينكما.

- اصمت أنت. سنوات كثيرة أستمع إلى تفاهتك ولزوجتك ولا أعترض من أجلها فقط. لكني لن أستمع إليك بعد الآن. اصمت يا هذا أو أقتلك.

هنا هرع حماه من أمامه واختفى داخل البيت. وجدَ محسن نفسه وحيدًا في صالة المنزل. لا يدري ما الذي يفعله وهو يشعر بعجزٍ يكتنفه ويقيّده.

في النهاية صرخ قبل أن يغادر المنزل:

- لن أطلقك يا أنغام. ولن يجبرني شيءٌ على فعل هذا.

في اليوم التالي ازدحم مدخل العمارة بسيارات الشرطة.

كان هناك ضباط شرطة وبعض أمناء الشرطة والكثير من العساكر المتأهبين بأسلحة لا تمزح، المتحفزين لمقاومة لن تحدث. البواب العجوز يلتصق بالحائط برعب وزوجته السمراء تنحني نحو قدم أحد الضباط تقبّلها وهي ترجوه أن يترك ابنها، بينما كان ابنهما الأكبر بين أيدي أمناء الشرطة يدفعونه ويركلونه ويصفعونه ويسبّونه. كان هناك بعض السكان وقد جذبَهم الصخب وشدهم الفضول، وتقدم أحدُهم وكان عقيد جيش نحو أكبر الضباط رتبةً وعرّفَه بنفسه وسأله عن سبب القبض على هذا الصبي، هنا أخبره الضابط بالفاجعة التي صدمت الكثيرين:

- البيه يتاجر في المخدرات والأقراص المخدرة. لقد تركناه وصبرنا عليه عسى أن يتوقف أو يراجع نفسه، لكنه توسّع في نشاطه، لم نكن لنتركه وهو يمارس فجوره هذا.

وأشار إلى لفافات مغلقة يحملها أحد الضباط:

- انظرا. لقد وجدنا هذا أسفل فراشه. لفافات بانجو وحشيش وأبتريل وترامادول.

انصرف رجال الشرطة بعدها بالصبي الذي أنهكه الضرب وانهارت الأم على الأرض وهي تلطم خديها وتشد شعرها، وسأل محسن البواب الذي عاد إليه بعض لونه بعد انصراف الشرطة إن كان في حاجة لمساعدة ما أو طلب محامٍ ما من أجل ابنه، لكنه فوجئ بالجواب الذي أذهله:

- يا أستاذ محسن، لن أرهق نفسي بالجري خلف هذا

المجرم. لقد أخطأ وعليه دفع الثمن، لن أجلب محاميًا من أجله ولن أدفع مليمًا واحدًا له. إخوته الباقون أوْلَى باهتمامي وأموالي. لقد اختار مصيره ولم يستمع إلى نصائحي، فليدفع ثمنَ هذا إذًا، يا سيدي من لم تربّه الأيام والليالي رباه رجال الشرطة.

شعر محسن بالاستياء من الرجال فقال مستنكرًا:

- لكنه ابنك يا رجل. لن تتركه حتمًا يضيع هكذا.

- إنه ابن واحد ولديّ غيره سبع. لن يضير كثيرًا أن أخسر واحدًا. وليس عسيرًا أن أعتبره قد مات. لقد فشلت في تربيته إذا لتفعل هذا به الشرطة والحكومة.

ظلّ محسن يرمقه بدهشة للحظات في غير تصديق لهذا المنطق الغريب، ثم رأى مرزوق؛ الطفل الصغير المرتعب والذي انكمش في أحد الأركان ووضع إصبعه في فمه. لاحظ محسن خيط البول الرفيع الذي راح ينساب من سرواله القصير. ولدهشته وجد نفسَهُ يتذكر رسالة ذلك الغامض الأخيرة والأكثر غرابة أنه شعر كم كان الغامض مصيبًا في دعواه وكلماته حول مصير البواب وأبنائه. نظر للبواب وهو يحدّث نفسه أنه بالفعل رجل لا يستحق أبناءه لأنه لا يدرك قيمتهم. رمق الصغير الذي يبكي ويرتجف وتساءل أي مصير يخبئه القدر لمثل هذا الطفل. وما أدراه أنه مصيره مختلف عن إخوته. كل شيء يراه يؤكد له أنه سيصير مثل إخوته؛ فالأب ما زال لا يبالي ولم يتغير ولا يبدو أنه سيفعل.

صعد لشقته الباردة وهو يتذكر حياته التي تتهدم وتتشقق. يتذكر حنينه للإنجاب. يتداعى لعقله شاكر وزوجته التي انتفخ بطنها بجنين أعاد لروحيهما الحياة. يتذكر ابن البواب الكبير وهو مقيد بالأصفاد وملقى بين أيدي وأرجل رجال الشرطة ثم ترتسم في عقله النظرة الهلعة في عيني مرزوق.

ومرة واحدة يفكر في الموقع الغامض ورجاله الغامضين. يفتح اللاب توب وبريده الإلكتروني. ثم يفتح تلك الرسالة التي تحوي الرابط ويدخل صفحة المحادثة. وقد حسمَ أمره. كان هو من بدأ الحوار هذه المرة.

- إنني أوافق على عقد الصفقة. أخبِرني ما الذي عليّ أن أفعله.

الباب الثاني: الطفل

1

حدث كل شيء بعدها بسرعة. لا وقت هناك للتفكير الطويل، فالتفكير الطويل قد يخلق التردُّد، والتردُّد قد يأتي في النهاية بالرفض.

فعل محسن كلّ ما طلب منه. كانت التعليمات دقيقة وواضحة وصارمة، هكذا أخبره ذلك الغامض في الموقِع الغامض. يجب أن يتم الأمر بدقة تامة وإلا فسدت العملية كلها. انتظر محسن ثلاثة أيام بعد محادثته الأخيرة حتى حلت الأيام الأخيرة في الشهر العربي وغاب القمر وأظلمت السماء تمامًا. جلب الكثير من البخور الجاوي والشموع السوداء، وبعد الأعشاب الغريبة من عطار محدد بالسيدة زينب. والذي كان يدعى «عطارة المعلم شمعون وصروف». أسماء عبرية مريبة. هل يمتلك ويدير ذلك المحل يهود، وهل لا زال بمصر يهود؟ تعجّب محسن.

ذهب إليه محسن بتوتر وقد حذره الغامض في الموقِع أن يخطئه ويذهب لعطار آخر. هناك وجد نفسه أمام محل صغير للغاية وعتيق للغاية، لا تتعدى مساحته ثلاثة أمتار مربّعة، امتلأ عن أخرة بالأجولة والأقماع التي تحوي التوابل والبخور ذات الرائحة المتداخلة المبهمة، وأمام المحل جلس رجل عجوز للغاية امتلأ وجهه بالتجاعيد ونحلت أنامل كفيه وجف الجلد فيهما فبدا وكأنه جثة محنطة عادت للحياة. بدا الرجل وكأنه تجاوز المائة عام بسنين طويلة، والعجيب أنه لا

زبائن حول الرجل ولا أحدَ من الصبية في المحل ليساعده. شك محسن أن القادرَ قادرٌ أن يخطو ولو خطوة واحدة بغير مساعدة، كيف يمكن لمثل هذا الرجل أن يدير محل عطارة مثل هذا حتى لو كان صغيرًا كهذا. كان محسن قد دوَّن تلك الطلبات في ورقة صغيرة كي لا ينسى أو يخطئ، وحين وقف أمام العجوز ابتسم له وقال في توتر:

- صباح الخير.

ببطء رفع العجوز وجهه نحوه، شكَّ محسن أن تلكما العينين الباهتتين للعجوز بإمكانهما الإبصار. لم يرد العجوز على تحيته، فقط ظلَّ ينظر إليه صامتًا، مدَّ محسن يده بالورقة التي يحملها نحوه وهو يستطرد:

- هل يمكنني الحصول على تلك الأشياء.

- لماذا تأخرت؟

قالها العجوز في صوت غريب، غليظ، بدا الرجل وكأنه يتحدث من حلقه، ومعه انبعثت رائحة عطنة، كانت رائحة تحلُّل قوية. كتم محسن أنفاسه، وقال رغم تأففه وذهوله:

- ماذا تقول؟

لم يجبه العجوز وامتدت أصابع العجوز ببطء نحو الورقة ونزعَها من كفِّه، إذًا فالرجل ما زال قادرًا على الإبصار. لامست أنامله كفَّ محسن فسرت قشعريرة من الخوف في جلد محسن. أنامل الرجل لها ملمس عجيب وباردة كالثلج،

وكأنها يدُ رجلٍ ميت. لم ينظر العجوز للورقة ولا حاول قراءتها. اكتفى بكرمشتها داخل كفه ثم نهض. راقبه محسن في دهشة، لا يستخدم العجوز أيّ عصا أو عكاز ليتكئ عليه، وبظهرٍ منحنٍ تحرك بخطوات واهنة نحو الدكان. لم يفكر محسن في مساعدة العجوز أو أن يسنده، كانت فكرة أن يلمسه مرة مرة أخرى تثير في نفسه خوفًا مبهمًا، شعر أنه يقف أمام جثة تتحرك. انحنى العجوز أكثر نحو درجٍ خشبيٍّ داخل المحل وفتحته وأخرج منه لفافة داخل كيس بلاستيكي أسوَد، وببطء لا حدّ له عاد العجوز إليه ومدّ يده باللفافة في وجه محسن، كانت يداه ترتعشان بشدة، نقل محسن نظره بين اللفافة ووجه الرجل ثم قال متشككًا:

- لكنك لم تفتح الورقة ولم تعرف ماذا أريد.

ظلت يدُ الرجل ممدوه نحوه وهو يجيب بنفس اللكنة المخيفة:

- هذه حاجتك خذها وارحل.

ومع الصوت عادت رائحة التحلل الخانقة لتنبعث من فم الرجل مرة أخرى، تقلصت أحشاء محسن، واضطرب قلبه. وحين تذكَّر تحذيرَ الغامضِ من الوقوع في أي خطأ قال مرة أخرى:

- هل أنت متأكد أنها ما أريده؟

لم يجبه العجوز، وظلّت يدُه ممتدة وهي ترتعش مع اللفافة، لاحظ محسن أن صدر الرجل لا يعلو أو يهبط، لا حركة تنفُّس

هناك. شعر بخوف حقيقي، ووجد نفسه ينظر حوله وكأنما يرغب في الاطمئنان إلى أنه ليس بمفرده في المكان وأن هناك غيره من المارة حوله يمكنه ان يطلب عونهم لو واجهه خطر ما. مضت نحو الدقيقة والعجوز لا يتكلم أو حتى يتنفس. مضطرًا امتدت يدُ محسن نحو اللفافة وتناولها من يد الرجل وهو يحاذر أن يلمسه، ثم قال بصوت مختنق:

- كم تريد؟

أدار العجوز الهَرِم له ظهرَه وهو يجيب:

- اذهب.

هنا لم يتردد محسن وغادر المكان كله وهو يكاد أن يجري، ويلهث وكأن الجحيمَ نفسَه يطارده، الغريب أنه حين جلسَ في سيارته وهدأت أنفاسه فتح الكيس الأسود فوجدَ به الشموع السوداء والبحور الجاوي ولفافاتٍ صغيرةً تحوي الأنواع الأخرى من العطور، شيء مريب وكأن العجوز كان في انتظاره وقد أعدّ له حاجته قبل أن يأتي.

كان الشيء الآخر المطلوب هو الحصول على بومة حية. لم يكن يدري أين تباع تلك الأشياء، وبالطبع لم يكن ممكنًا أن يسأل أحدًا كيف يشتري بومة. فآخر ما قد يفكر فيه هو أن يثير الشك في نفس أحدهم. بحث عبر النت عن أماكن بيع الطيور الكاسرة واستطاع من خلال التسوق عبر موقع لبيع الطيور الحصول على بومة كلّفته خمسة آلاف جنيه كاملة.

كل هذا كان سهلًا ممكنًا؛ لذا انتقل إلى الخطوة التالية

العسيرة.

عليه أن يختطف مرزوق.

سيكون قربانه وأضحيته. سيكون طرف المقايضة الأول الملعونة التي يقدمها لهؤلاء الغامضين!

لا شيء بلا مقابل. حياة بحياة وطفل بطفل. مقايضة مريعة لكن لا فكاك من تنفيذها. إنها حياته وسعادته هذه المرة. إنها الحلم الذي طالما راودَه في أن يرى ابنًا من صلبه يناديه «بابا».

لكن ماذا لو كانوا أفّاقين؟ ماذا لو كانوا يخدعونه، ويدفعونه لارتكاب جريمة بلا مقابل ولن يساعدونه في علاج زوجته؟ سؤال مفزع مُقلِق لا يفارق عقله ولا تفكيره. ودومًا كان يتحاشاه ويحاول أن يتجاهله بصرف تفكيره نحو أمرٍ آخر على الفور.

لا يريد أن يقتل الأمل في نفسه ولا يبغي أن يدخل بذرة الشك نحو قلبه فيتراجع.

إنها حماقة قرر أن يخوضها، فليمضِ فيها إلى النهاية، مهما كانت نتائجها.

كانت التعليمات التي لقنه إياها ذلك الغامض بسيطة؛ عليه أن يذهب إلى عمله كما يفعل كل يوم، وعليه أن يعود لبيته في وقت الراحة الذي يبدأ في الواحدة وينتهي في الثانية ظهرًا. عليه أن ينتظر رسالة تأتيه من أولئك الغامضين تخبره

بالوقت المناسب لاختطاف الطفل. طمأنه الرجل الغامض أنهم سيساعدوه في اختطاف الطفل. فقط عليه أن يلتزم حرفيًا بتعليماتهم وألا يرتجل في أي خطوة وإلا فشلت الخطة كلها. في مدخل العمارة سيجد الطفل يلهو كما يفعل دائمًا. يومها لن يكون أبوه في الجوار أو أمه. سوف يلاعبه كما يفعل كلّ يومٍ وسوف يراقب المكان ليتأكد أن لا أحد من سكان العمارة من جيرانه حوله أو يراه. حينها عليه أن يقنع الطفل بحيلة ما أن يصاحبه في سيارته. وأن يقدّم له حلوىً تحتوي على مخدرٍ ما، ثم يذهب به إلى شقة أخبره بعنوانها ذلك الغامض. الشقة بعمارة خالية ما زالت تحت الإنشاء، وهناك سيتركه مقيدًا حتى المساء، ثم يعود إليه ثانية لينفذ الجزء التالي من الخطة.

بعد أسبوع كامل جاءته الرسالة المتقتضبة عبر هاتفه المحمول.

«في تمام الواحدة والربع ستختطف الطفل، سيكون كل شيء مُعدًا من أجلك، فلا تردد».

وسار الأمر كما خطط له ذلك الغامض. لم يكن عسيرًا أن يقنع الطفل بمصاحبته، وبالفعل لم يجد البواب أو زوجته في المكان في هذا الوقت. كان مرزوق هناك داعبه بابتسامة مُضرِبة وقلب مرتجف وناوله الحلوى المخدرة وهو يتحرك به نحو السيارة ويتمنى ألا يراه أحدٌ من سكان العمارة أو الجيران. العجيب أن الكهرباء كانت مقطوعة عن الحي كلّه، كان هذا من حسن حظه كي لا تصوره كاميرا ما من كاميرات

مدخل العمارة وهو يصطحب الطفل معه إلى السيارة. هل قطع أولئك الغامضون الكهرباء لتسهيل المهمة؟ كان في أعماقه يعرف الإجابة.

تحرك بالطفل الذي راح يغطّ في النوم إلى جواره في السيارة بعد التهامه الحلوى المخدرة إلى العنوان الذي أخبره به الغامضون، كان المكان في أحد الأحياء الجديدة في شرق القاهرة. استعمل خرائط جوجل ليصل للمكان، وهو يخشى أن يجد هناك أي شخصٍ قد يراه وهو يحمل الطفل المخدّر، فيثير هذا الشك فيه. كان يعرف أن ما قام به جريمة عقوبتها السجن بلا شك. بالتأكيد لن يكون لديه أي مبرر مقنع لاختطاف الطفل وتخديره والذهاب به إلى ذلك المكان قيد الإنشاء. وصل للمكان وكالعادة كان المكان خاليًا تمامًا رغم امتلائه بمعدات البناء. لا عمّال ولا غفراء أو حراس. أين ذهب كل هؤلاء؟ وهل يكون الغامضون بمثل تلك القوة ليقوموا بتهيئة مسرح الجريمة له هكذا؟

حمل الطفل وهو يتلفت حوله طوال الوقت ويفكر في حجة ما يقولها لو ضبطه أحد هكذا. وصل إلى العمارة السكنية التي لا زالت قيد الإنشاء. كانت مكتملة البناء لكن لا زالت كل الشقق على الطوب الأحمر. في الدور الثالث دخل الشقة الأولى إلى اليمين كان باباها مفتوحًا. تحرك بالطفل نحو حجرة فارغة وتركه مكوّمًا على الأرض العارية، ثم غادر الشقة وقد أغلق بابها، وعاد لعمله بسرعة حتى لا يتأخر، كان مضطربًا، وشعر أن الكل ينظر إليه في شك، وأن تفاصيل

جريمته مدوَّنة على صفحة وجهه.

لم يستطع العمل ولو للحظة واحدة، فاستأذن مديريه في العمل وخرج، لم يرغب في العودة لشقته وكان هناك خاطر مرعب أن يكونوا قد اكتشفوا جريمته، وأن يكون رجال الشرطة هناك بانتظاره للقبض عليه وسجنه، وربما قد يفتك به البواب ويقتله قبل أن يصل إليه رجال الشرطة.

لكن الفضول كما يقولون قد قتل القط، ولأنه سئم التجول في الشوارع المزدحمة بالسيارة بلا هدف فقد عادَ لعمارته السكنية ليجد مدخل العمارة في فوضى. زوجة البواب تبكي وتولول بلا انقطاع وهي تلطم خديها وتشد شعرها الخشن، وزوجها لا يكف عن الحديث مع أبنائه وبعد معارفه من بوابي العمارات المجاورة والحرفيين بالمكان وهو يطالب كلّ مجموعة منهم بالبحث عن الطفل المفقود في كل مكان قد يكون قد اختفى الطفل فيه.

ينقبض قلبه ويجف حلقُه وترتعش يداه. وجهه الممتقع هل يكشف جريمته أمامهم؟ فكّر للحظة قبل أن يندفع نحو الزحام الذي أمامه. يسألهم ببراءة وقلق مصطنع عمّا هناك. ويخبره البواب بصوت أقرب للبكاء:

- إنه مرزوق يا أستاذ محسن. لقد ضاع. لقد فقدناه.

يزداد توترًا وينضح جبينه بالعرق الغزير. ويحاول التماسك. يسألهم كيف حدثَ هذا وهو أدرى بما حدث ولا يهتم بالإجابة التي يعرفها أكثر منهم جميعًا. لا تكفُّ أم الطفل الثكلى بفقد

ابنها عن الصراخ وهي تنادي الفراغ وتصرخ منادية اسم ابنها. ظلّ واقفًا بين الحشد الكبير لنحو النصف ساعة وهو يتابع كل ما يحدث وقلبه يضطرب في صدره، ويشعر بالعار الذي لن يفارق جبينه ما عاش. يداه ملوثتان بكل هذا الحزن واللوعة التي تحرق قلبيْ أم مرزوق وأبيه، كادت قدماه أن تخذلاه فرأى أن يغادر المكان ولم يحتمل لحظة أخرى من الوجود في هذا الجحيم. تحرك نحو شقته بعد أن عرضَ خدماته التي لن يستطيع تقديمها وقدماه بالكاد تحملانه.

عاودته الشفقة وذهب تجلده وإصراره على القيام بالأمر. عاد ليشعر بذنب لا قِبَلَ لَهُ به. عليه أن يتراجع وأن يعيد الطفل إلى أهله. لكن كيف السبيل وقد تحرّك القطار وغادر المحطة. فحتى لو عاد فسوف يخبر الطفل الجميع أنه من اختطفه. لن يرحمه أحدٌ في تلك اللحظة أبدًا. لقد دارت العجلة واتخذت طريقها منحدرة نحو الهاوية التي لا مفر منها.

لقد قضي الأمر.

لم يتناول أيّ شيءٍ. وأي شهية قد تأتيه في وقت كهذا. فكّر ألف مرة في التراجع. في أن يعيد الطفل لأبويه ولو كان في هذا هلاكه. لكنه كان يعلم جيدًا أنه أجبن من أن يواجه السجن ولو للحظة واحدة. حاول أن ينشغل بمشاهدة فيلم أجنبي، أو مباراة لكرة القدم. راحَ في ملل ونفاد صبرٍ يقلب في القنوات التليفزيونية لعددٍ غير محدد من المرات في النهاية أغلق التليفزيون وطوّح بالريموت نحو الحائط فهشمه

تمامًا وهو يصرخ في ألم:

- اللعنة!

ورغمًا عنه عاد ليفكر في الطفل الذي طالما اطمأن له وأحبّه ويفكر بأم وأب فجعًا في طفلهما ولن يرياه ثانية.

مضى الوقت ببطء مميت، حتى أشارت الساعة لمنتصف الليل. لقد حان الوقت، وعليه أن يتحرك. حان وقت تنفيذ الجزء الثاني من المهمة المقيتة واللعبة القذرة التي غاص فيها. جمع حاجياته التي جلبها. وهبط من شقته، وهبط الدرج على أطراف أصابعه كي لا يراه أو ينتبه إليه أحدٌ ما. تمنى ألا يقابله البواب أو زوجته. من حسن حظه أنهم لم يكونوا هناك.

ذهب للشقة التي ترك فيها مرزوق، وكالعادة كان المكان خاويًا للغاية. فقط جاء من مكان مظلم خفيّ نباح الكثير من الكلاب الضالة. وهناك كان مرزوق قد أفاق من المخدر. كان الطفل يبكي في الظلام في فزع لا حدّ له. أشغل محسن كشاف كهربائي فرآه مرزوق الذي اندفع نحوه فورَ أن تعرّفه، والعجيب أن محسن احتضنه بحبٍّ حقيقيّ وقلبُه يختلج قبل أن يبعده وقد خشي أن يعجز عن إتمام ما هو مُقدِمٌ عليه. انحنى نحو الطفل وهمس في أذنه:

- أنا معك. لا تخف.

لكن الطفل رفع رأسه نحوه بعينين محتقنتين بالدموع وأنف ملوث بالمخاط وهمسَ هو الآخر:

- أنا خائف.

ربت محسن على رأسه مهدئًا، ثم جذبه من كفه الصغيرة وراح يهبط معه درج العمارة الخالية. أركبه سيارته وقال له وهو يركب خلف عجلة القيادة:

- ما رأيك لو نذهب سويًا إلى مكانٍ ما.

- لا. أريد أمي. أريد أن أذهب إلى أمامي.

أجابه الطفل في خوف وبكاء. شغّل محسن محرك السيارة وقال وهو يتحرك:

- سوف أعيدك إليها، لكن قبل هذا سوف نذهب إلى مكان لأشتري لك بعض الحلوى والألعاب. ألا تريد طائرة ورقية كبيرة؟

رمقه الطفل في شك، ثم وضع إصبعه في فمه وراح يمصه في خوف، يعرف محسن أن مرزوق يفعل هذا حين يخاف أو يعاقبه أحدُ أبويه بالضرب. ولمنع نفسِه من الشعور بالشفقة تحاشى النظر إلى الطفل وراح يراقب الطريق المظلم من أمامه.

قاد سيارته نحو المقابر. وحين وصل إلي هناك وجد الرجل الذي أخبره ذلك الغامض عنه في انتظاره. كان عجوزًا تخطّى السبعين من عمره بلا شك يرتدي جلبابًا مهترئًا ويلف رأسه بشال بني. عيناه قاسيتان نافذتان كعيني صقرٍ، ووجه جامد صارم لا يريحه. ركب العجوز السيارة دون أن يتحدّث إليه

في المقعد الخلفي خلف الطفل، وباقتضاب راح يرشده داخل المقابر التي تنتصب شواهدها في الظلام ساكنة مخيفة محمّلة بالخيالات والهواجس.

يصلان إلى مقبرة تقبَع وحيدةً بعيدةً عن باقي المقابر. فيشير إليه الرجل العجوز الذي لا يدري من يكون. وإن خمن أنه لا بُدّ أن يكون لحّاد المكان:

- إنها تلك المقبرة المنشودة. لقد فتحتها من أجلك. هيّا اهبط!

يرمق محسن المقبرة الغارقة في الظلام، ثم يقول بحلق جاف:

- ألن تأتي معي؟

- عملي أن أوصلك إليها. ما بعد ذلك شأنك وحدك. الآن سأرحل، لقد أتممت عملي.

قالها وهبط من السيارة، وسار مبتعدًا ليختفي في لحظاتٍ بين شواهد المقابر دون أن ينظر خلفه. همس الطفل الراقد بالكرسي الخلفي من السيارة أنه خائف فلم يعِره محسن اهتمامًا. بعد قليل تمالك نفسه وهبط من السيارة وقد أضاء مصباحًا يدويًا وحمل أغراضه من حقيبة السيارة الخلفية ثم اتجه في خوف حقيقي وأنفاث لاهثة ثم نحو القبر المظلم. تردد للحظات في أن يدخله وهو يخشى أن يجد هناك ثعبانًا مثلًا أو حيوانًا ما. انحنى أمام الباب المنخفض المفتوح ومدّ ذراعه بالمصباح اليدوي داخل القبر، ليتأكد ألا خطر هناك.

بعدها أدار ظهره لباب القلب وراح يزحف بظهره لداخل القبر. وضع أغراضه كلها هناك قبل أن يعود ليحمل الطفل ويعود للقبر ثانية.

بدأ الطفل في النشيج من الخوف، فهمس في أذنه كاذبًا:

- لا تخف يا مرزوق. عمو محسن معك لا تخش شيئًا.

كلمات جوفاء لا معنى لها لن تطمئن الطفل أبدًا. من الداخل كانت جدران القبر متصدعة للغاية. هذا قبر ما زال قائمًا في مكانه بمعجزة ما. الرائحة عطنة تثير الغثيان وأرض المكان نظيفة لا تحوي إلا الثرى الناعم وإن لاحظ جمجمة صغيرة مطمور أغلبها في أحد الأركان، لا بُدّ أنها تنتمي لطفلٍ ما.

هل شهد هذا المكان المخيف جريمة مماثلة لما هو موشك على اقترافه الآن. كل شيء يوحي أن هذا ما حدث.

ترك الطفل بجوار أحد الجدران، ثم بدأ يعد المكان للمهمة، تمامًا كما أخبره ذلك الغامض من قبل. يخرج ورقة من جيبه وطبشورًا أحمرَ ويبدأ في رسم الكثير من النجوم الخماسية والدوائر مماثلة لما تحويها الورقة في كل أنحاء الجدران. يمضي الوقت ببطء والطفل خائف يبكي في صوت مكتوم، وقد بلّل نفسه ببوله. فرغ محسن من الجدران فجثا على ركبتيه على الأرض وبدأ في رسم نجمة خماسية ضخمة تحيطبها دائرة كتلك التي رسمها مرارًا على الجدران وفمه لا يكف عن ترديد تعويذته المعلونة:

بحق أزمنة الشر السحيقة وسادتها القدماء.

بحق سكان الجحيم ومردته وشيطانيه

بحق سيد الظلمة والجحيم والنار والظلال.

بحق جعكان ومطرون والأجدع شيصبان.

أمنحك يا مولاي قربانك البشري.

حياة بحياة وطفل وبطفل.

ثم راحَ يضيء الشموع السوداء وراح يوزعها داخل أذرع النجمة الخماسية ثم في أركان المقبرة كلها. ليتراقص في المكان لهبٌ شبحيٌ مخيف فيزداد خوف الطفل. أشعل بعدها أعوادَ البخور فعبق المكان بعطرها النفّاذ.

أخرج محسن البومة من الحقيبة وقد قيّد قدميها وهو يتحاشى منقارها الحاد الذي يبغي الفتك به ثم أرقدها في منتصف النجمة الخماسية، وأحكَمَ قبضته على رقبتها قبل أن يقطع عنقها بسكّين حادّ. راحت البومة تنتفض في كفه لكنه لم يتركها، وراحت دماؤها تسيل في منتصف المثلث وتتشربه الأرض الترابية بنهم لا حدود له. وحين همدت حركتها تمامًا ألقاها محسن بلا مبالاة في أحد الأركان قبل أن يلتفت إلى الطفل.

لقد حانت اللحظة. الغريب أنه بدا في تلك اللحظة كالمنوّم مغناطيسيًا، واتجه للطفل وحمله بلا مبالاة لصراخه رعبًا. وضعه في منتصف الدائرة وأخذ يقيّده بحبل غليظ. صرخ الطفل بصوت مختنق وهو يستنجد به ويستعطفه أن يكف

عمّا يفعله. في تلك اللحظة تراقص ظلال لهب الشموع في جنون وكأنما تتلاعب به رياح شبحية، وانعكس ضوء الشموع على وجهه فبدا كالشياطين.

انتهي من تقييد الطفل وأرقده في منتصف النجمة الخماسية. ظلّ الطفل يصرخ في جنون بينما أغلق محسن عينيه، وبصوت مرتفع راح يرتل ثانية تعويذته اللعينة.

بحق أزمنة الشر السحيقة وسادتها القدماء.

بحق سكان الجحيم ومردته وشيطانيه

بحق سيد الظلمة والجحيم والنار والظلال.

بحق جعكان ومطرون والأجدع شيصبان.

أمنحك يا مولاي قربانك البشري.

حياة بحياة وطفل وبطفل.

راح صوته يرتفع دون أن يشعر، وراح يعيد ترديد التعوذية بلا توقف. صوته راح يتردد بين جنبات القبر العتيق في رنين مرعب مخيف، وحين فتح عينيه ثانية رأى الظلال التي تتحرك داخل الجدران. ظلال سوداء رهيبة لم يجسر على النظر إليها. يخرج سريعًا من المقبرة ويغلق بابها الخشبي خلفه والطفل يصرخ بفزع كما لم يصرخ من قبل. تتناهى إلى سمعه الأصوات الرهيبة من القبر. أصوات لا تنتمي أبدًا لعالمنا هذا. أصوات قادمة من الجحيم نفسه.

يعدو نحو سيارته وهو لا يرى أمامه. يدير المحرك ويتحرك

بها مسرعًا كأنما يفر من الشيطان. وحين يغادر منطقة المقابر يشعر بالانهيار . يتوقف في أحد الأركان. ينتفض من الألم ويبكي قبل أن يطلق صرخة هائلة وقد كره نفسه. شعر أن السّكرة قد ولّت وأتت الفكرة.

لقد اقترف جريمة نكراء.

قتلَ طفلٍ بدمٍ باردٍ.

2

تنظر أنغام إلى صورتها في المرآة. لشدّ ما تغيرت. تتحسس وجهها بأناملها الرقيقة. عينان غائرتان وأنف استطال وخدود غارت، وجسد هزل ونحل. تتصلب أمام المرأة لبعض الوقت، ولا ترى عيناها وجهَها بل يسبح عقلها في ذكرياتها.

ما يربطها بمحسن ليس الزواج فقط. بل كان شيئًا أكبر كثيرًا. كان الحب الذي جمع قلبيهما لأعوامٍ قبل أن يُتوَّج بالزواج. أحلام كثيرة طالما راودتهما ومشاريع من السعادة طالما حلَمَا بها لكنها ظلت مؤجلة تنتظر أن يأتي وقتها. هل تكسر كل شيء جميل أمام صخرة العقم. وهل للأطفال كل هذا السحر في الحياة؟ ألا يكفي الحب فقط وما يحيطه من مودة واهتمام ورعاية أن يكونوا أساسًا قويًا لزواج سعيد.

لكنها كانت تعلم الإجابة

(المال والبنون زينة الحياة الدنيا)..

صدق الله العظيم في كل شيء أنبأنا به وأنزله علينا. طرقات على الباب تخرجها من شرودها فتنتبه إلى أنها ما زالت أمام المرآة. تلتفت لترى وجه أمها. تلتقي أعين أربع للحظاتٍ من الصمت مليئة بالكثير من الكلام. أعين تفكر في الأمر وتعاني من نفس المشكلة. تخفض عينيها وتقول:

- مرحبًا أمي. هل ترغبين في شيء ما.

- ألم تنامي بعد؟ ظننك نائمة.

- سأنام على الفور، فقط سأصلح شعري قبلها.

ثم ترفع عينيها ثانية وتتلاقى الأعين، وتتنهد الأم قبل أن تنصرف، وتغلق الباب ثانية خلفها، وهي تردِّد:

- ليصلح الله من شأنك، ويفك كربك يا أنغام.

دعوة لا تمل الأم من سؤال الله بها. دعوة تحمل في طياتها كل ما يختلج نفس الأم من لوعة على ابنتها التي تنهار حياتها كلُّها أمام بصرها في تلك الآونة. ترقد على الفراش وتغلق النور ويشخص بصرها في الظلام. يعاندها النوم لأكثر من ساعة وعقلها يجتر ذكريات كثيرة قبل أن يغالبها الوسن.

وكان الحلم..

الرجل المسن حلو الملامح ذو اللحية البيضاء كالقطن والعيون اللامعة والبسمة العذبة. كان يجلس إلى جوارها في حديقة ما أو رصيف ما. يهمس لها.

- لقد حان الوقت.

لا تدري ما يتحدث به وما يقوله، ولا تعقب على كلماته فيعاود التحدث.

- أملِك هدية من أجلك. ما رأيك لو خمنتِ ماذا أحمله لك؟

ليست الحلوى ما يبهرها الآن وحتمًا لن يكون ما تتمناه شيئًا ماديًا. ينبض فؤادها وتحاول أن تسأله عن هديتها لكن صوتها لا يفارق حنجرتها وما زال الرجل يبتسم وما زال النسيم يداعب وجنتيها. وحين يمد الرجل يده في جيب جلبابه

ويخرج لفافة بيضاء تدرك كنهها فور رؤيتها. كان طفلًا. يزداد خفقان قلبها ويقرب الرجل المسن اللفافة أمام عينيها وترى الرضيع الجميل فتمد أناملها نحوه لتتحسسه، ويقول الرجل هامسًا:

خُذيه يا أنغام . إنه ابنك. هذا أدهم محسن.

وتمد كفيها نحو الطفل في لهفة وقبل أن تلمسه ينتهي الحلم بغتة فتنهض شاهقة في توتر ولا يكف قلبها عن الخفقان. الظلام ما زال يغرق الحجرة، وعقارب المنبه الفسفورية تخبرها أن ساعات ثلاث قد مضت على نومها والحلم المذهل حلو المذاق ما زال تأثيره الرهيب يكتنف روحها. قطرات من العرق البارد تحتشد على جبهتها وحلقها الجاف يدفعها للذهاب للثلاجة كي تشرب الماء وحين عادت لفراشها راحت تفكر في الحلم الغريب. ليته كان حقيقية. ليته نبوءة من عوالم الأسرار تُخبرها أن التخبط والتيه قد وليا، وأن السعادة قد حانت.

عقارب الساعة تتحرك ببطء والدقات الرتيبة لها تدق في أذنها كالطبول والنوم يعاندها ويمضي الوقت ولا تدري كيف أتاها النوم ثانية. وحين أتى النوم حمل معه الحلم الثاني.

نفس المقعد الذي كانت تجلس عليه في الحلم الأول، ونفس الحديقة لكن كانت امرأة عجوز بجوارها هذه المرة. امرأة حلوة الملامح منحتها من قبل جيناتها العبقة بالجمال والجاذبية والعيون العسلية الواسعة. كانت جدتها. وكانت

تبتسم هي الأخرى في وجهها.

تتحدث الجدة التي فارقت دنياها منذ أعوام بعيدة.

- لقد حان الوقت يا أنغام. عودي لزوجك. إن أدهم ينتظر.

يخفق القلب ويتعثر اللسان في الكلمات وتغمغم:

- لكني أريد الطلاق يا جدتي. لن يكون هناك أدهم أو غيره. إنني لا أنجب.

- بل ستنجبين هذه المرة. انظري!

وتمد يدها نحوها لترى اللفافة التي رأتها مع الرجل العجوز في المرة الأولى. كان نفس الطفل الوسيم. تتردد قبل أن تَمُدّ يدها وهي تخشى أن يفارقها الحلم هذه المرة قبل أن تلمسه كما حدث في المرة الأولى. لكنها وحين ترى جدتها ما زالت تبتسم ابتسامتها المشرقة ومازالت يدها ممدوة بالطفل نحوها تمد يدها وتحمل الطفل. يبتسم في وجهها وتتحسن وجهه فيخفق قلبها شوقا وتسمع جدتها:

- إنه طفلك الذي ترغبينه. عودي لزوجك كي تحصلين عليه.

هنا يفتح الرضيع عينيه فجأة ويفتح فمه وتخرج الكلمات من فمه. يناديها بالكلمة التي تشتاق لها:

- ماما.

يتبدد الحلم فجأة ويختفي الطفل ويعود الظلام لعينيها وتشير عقارب الساعة الرابضة بجوارها لساعة أخرى قد

مضت من الليل، وأذان الفجر يتردّد في تلك اللحظة في أذنيها وقد ارتفع من المسجد القريب.

تجلس على الفراش وتسند رأسها على ركبتها وهي تحضنهما بذراعيها وقد فارقها النوم تمامًا هذه المرة. الحُلم قد تكرر والمعنى واحد؛ عليها أن تعود إلى زوجها؛ لأن الحلم قد آنَ وقته. أدهم ينتظر في أحشائها. هل ما حلمت به رؤيا مبشرة من عالم الأسرار أم هو عبث من عقلها الباطن.

إنها رؤيا بلا شك. إنها رؤيا أرسلها الله مبشرة كي توجهها إلى الطريق.

وحين يأتي الصباح بعد حين تتصل بزوجها. يأتيها صوته المندهش الناعس محييًا فتقول له على الفور:

أريد أن أعود للبيت. سوف أنتظرك بعد أن تنتهي من عملك يا محسن.

3

لم ترَ أنغام في عيني محسن السعادة التي تنتظرها، ولم تجد في روحة اللهفة التي كانت تتوقعها. شيء ما غريب مبهم قد تبدّل في روح محسن ونفسه. بدا وكأن ثقل ضخم يجثم على روحه وقلبه. كانت عيناه زائغتين طوال الوقت، وعقله صار دائمَ الشرود، صار يفزع من أقل حركة قد تصدر حوله فجأة ولدهشتها لازمته كوابيس مخيفة كما ترى راجت تقض مضجعه كل ليلة ليفيق منها صارخًا هلعًا. في البداية ظنت أنه غير سعيد بعودتها. وفكر عقلها أنه ربما استحسن قرارها السابق بالانفصال عنه، وعَدّه حلًّا لمشكلته معها. ولهذا قد أحزنه أن تعود إليه ثانية.

أرقتها تلك الفكرة كثيرًا فتوترت هي الأخرى وصارت تبحث في عينيه عما يؤكد تلك الخاطرة أو ينفيها. الغريب أنها لمحت بين شروده فرحة حقيقية. فرحت عاشتها حين أخبرته بحلميها الغريبين وعن البشرى التي أتتها بقدوم أدهم. لم ترَ في عينيه نظرةً تشكيك وغير تصديق. كان فرحًا. هذا لا شكّ فيه حتى إنه احتضنها حينَها وبكى. إذًا ما الذي بدّله هكذا وغيّره.

راح يجلس طوال الوقت أمام شاشة اللاب توب شاردًا. وهو يفتح صفحته على الفيس بوك ويتفقدها بلا مبالاة. تكاد أن تقسم إنه لم يقرأ أو يرى حرفًا مما أمامه. تتقلص عضلات وجهه بألمٍ خفيٍّ كلّ حينٍ وترتجف أجفانه. ولا تتمالك نفسها

وتسأله:

- ما الذي بك يا محسن؟ هل أنت بخير؟

هنا ينتفض كأنما أفاق من عالمٍ آخر. ويهز رأسه ويجيب دون أن يلتفت:

- لا شيءَ يا حبيبتي. لا شيء. إنني بخير.

- ألست سعيدًا بعودتي إليك ثانية؟ أخبرني يا محسن وأعدك ألا أغضب. هل تريدني أن أبتعد ثانية؟

هنا يلتفت إليها. ترى استنكارًا حقيقيًا على وجهه ويجيب من فوره:

- ما هذا اللغو الذي تتفوهين به، ومَن أدخَلَ تلك الفكرة الحمقاء في رأسِكِ؟ بالطبع إنني أكثر الناس سعادةً بعودتك. أنت أكثر من يعلم هذا، وأكثر من يدرك كم أنا أحبك.

تحضنه من ظهره وتقبّل رقبته ورأسه في حنان حقيقي وعيناها تنضحان بالدموع وتقول له:

- إذًا ماذا بك؟ لقد تغيرت كثيرًا. لا أرى السعادة في عينيك كما عهدتك. أشعر أحيانًا أنني هجرتك لأيام لأعود فأجد زوجًا آخر لا أعلمه. أخبرني بالله عليك ما الذي يحدث؟. هل كانت هناك أخرى؟

يضحك ضحكة لا معنى لها وهو يجيب:

- حمقاء أنت بلا شك لو دفعك عقلك للتفكير في أمرٍ كهذا.

لم تكن هناك أبدًا في حياتي واحدة غيرك، ولن تكون. إنه الإجهاد فقط يا حبيبتي، فاطمئني.

ثم يلوذ بالصمت ثانية، وكأنما انتهى من حديثه تمامًا. ترمقه في غير فهم للحظات وكأنما هناك ما يدور برأسها، قبل أن تحسم أمرَها، وتتحدث ببطءٍ:

- محسن! يبدو أن الأمر يحدث. لست متأكدةً، لكنها لم تأت منذ الأمس.

ينظر إليها بحيرة للحظة مفكرًا في ما تقصده قبل أن يهبط الجواب فجأة على عقله. لا بُدّ أنها تعني أن دورتها الشهرية لم تأتِ في موعدها. بالفعل كان موعدها الأمس، وكانت من قبل منتظمة كالساعة. هل يعني هذا أنها حامل مرة أخرى. يترك اللاب توب وينهض ليحتضنها فتبكي. وتقول وهي تدفن رأسها في صدره ملتمسة أمانًا واطمئنانًا تفتقده:

- إنه أدهم بلا ريب. قلبي يحدثني أنه أدهم.

يربت على ظهرها في حنان حقيقي وهو يهمس في أذنيها:

- إن شاء الله سيكون أدهم. أنا متأكدٌ من هذا هذه المرة فلا تقلقي. ما رأيك لو ذهبنا للطبيب لنتأكد.

كانت ترغب في هذا بشدة، لكنها كانت مرتعبة من أن يخبرها الطبيب أنها واهمة، وأن دورتها الشرية قد تأخرت لسببٍ ما آخر؛ لذا تقول معترضة:

- لننتظر ليومين آخرين قبل أن نفعل. ربما تأخرت الدورة

لسببٍ ما، وربما ليس حملًا.

لكنه يهتف معترضًا بثقة عجيبة:

- إنه حمل حقيقي يا حبيبتي. أنا متأكد من هذا فثقي بي. إنه حمل مقدر له أن يكتمل هذه المرة بإذن الله.

لا تدري من أين يستمد تلك الثقة في حديثه بينما يفكر هو في ذلك الموقع الغامض والجريمة الشنيعة الذي اقترفها منذ أسابيع؛ لقد تسبب في قتل مرزوق. لقد قدّم مقايضة رهيبة وحان وقت السداد. حان وقت الوفاء بالعهد وحان وقت الطفل.

تبدل ملابسها وسويًا يذهبان إلى الطبيب، يطلب بعض الفحوصات والتحاليل ليتأكد، يعودان إليه بها بعد ساعات. تطلع الطبيب إلى التحاليل التي أمامه في هدوء ثم ابتسم:

B.HCG: Positive

ثم نظر إلى أعينهما المترقبة وقال:

- لا أفهم كيف حدث ذلك، لكنه حامل بالفعل. إنها معجزة حقيقية يا سيدتي. معجزة سعيدة.

تشعر أنغام أنها تكاد أن تطير من السعادة، وراح قلبها يخفق في نشوة وفرح حقيقي، وهي تتبادل مع محسن النظرات الفرحة السعيدة، ثم تنظر للطبيب وبصوت مرتجف تسأل السؤال الذي تخشى إجابته:

- هل سيكتمل الحمل هذه المرة؟

- هذا شيء بيد الله وحده. دعينا نرى رحمَكِ بالأشعة لنعرف كيف تدور الأمور.

الرحم هادئ أمامه كصفحة ماء في جدول راكد. يبدو أنه سيفعلها هذه المرة ولن يلفظ الجنين. يبشرها لتزداد سعادة. يغادران العيادة في سعادة حقيقية ومحسن يحتضن كفها وفي السيارة يقول محسن:

- ما رأيك لو نحتفل؟

لكنها تتراجع بظهرها في المقعد وتريح رأسَها عليه وتتنهد وكأنما تزيح عن صدرها عبئًا ثقيلًا طالما حملته ثم تقول في هدوء:

- لا. دعنا نعود للبيت. أشعر أني أرغب في البقاء في فراشي حتى يأتي أدهم.

- ولماذا لا تفعلين. افعلي ما تشاءين يا حبيبتي.

يعودان للعمارة. ترى بعجب كيف يضطرب محسن لمرأى زوجة البواب التي هزل جسدها وضمر كثيرًا بعد أن فقدت غلامها وضاع منها للأبد. لماذا يهرول محسن كهذا من أمام المرأة الحزينة كأنما يفر من شبحٍ ما. ربما كان حزينًا لفقد الطفل الذي طالما أحبّه، وربما لا يريد أن يرى ما يذكّره به. هي نفسها تشعر بالأسى لفقد الطفل، وتشفق على حال والديه. إنه مصاب جَلل بلا شك. وتدعو الله في سرها أن يعيد الطفل لو كان حيًا إلى أهله.

في المساء يتململ كلٌ منهما بينما هما غارقان في النوم على الفراش. الصمت يغلّف المكان لا يقطعه إلا الدقات الرتيبة الخافتة لعقارب المنبه الفسفوري التي تشير إلى تجاوز الساعة الثالثة صباحًا. تتقلص خلجات محسن وتبدو المعاناة على وجهه، وتزوم أنغام وتخرج من فمها أصوات مكتومة وهي تحرك رأسها للناحيتين. إنهما يحلمان. هذا صحيح بلا ريب. كما أن أحلامهما ليست سعيدة أبدًا. لا ريب أنها كوابيس مخيفة.

بالفعل كان كلٌ منهما يعيش في كابوسه الخاص في تلك اللحظة. تقبض أنغام على رضيعها المنتظر وهي لا تكف عن النظر إليه بذهول. جميل وحلو كما تمنته دومًا أن يكون. وبالرغم من صغر عمره إلا أنه استجاب لدعابتها وهي تناغيه وتداعبه فراحَ يبتسم لها. يبتسم فتظهر غمازتان غائرتان على جانبي وجهه. غمازتان سلبتا لبّها من حلاوتهما، لكن لماذا تشعر أنها ليست بمفردها بالحجرة. لماذا توترت فجأة ولماذا يأتي الظلام نحوها ونحو ابنها من بعيدٍ. تتلفت حولها بفزع وهي تحتضن رضيعها لتحميه. كان الظلام القادم كثيفًا للغاية، واختفت الحجرة فجأة من أمام بصرها. فراحت تصرخ وهو تتلفت حولها في جنون:

- مَن هناك؟

لكن لا يأتيها ردٌ آدمي. فقط من قلب الظلام الذي أحاطَ بها الآن كانت هناك تلك الحشرجة غير البشرية. تفكّر في الهرب وعرقُها يحتشد على جبينها وطفلها يبكي الآن كأنما يشاركها

فزعها. لكن إلى أين تذهب؟

الظلام في كل مكان يا فتاة. لا مهرب. تسمرت قدماها في مكانها وقد شعرت أنه لا جدوى من المحاولة.

وفجأة ترى ظِلًّا قادمًا نحوها من قلب الظلام!

في البداية تظنه طفلًا لقامته الضئيلة المتشحة بالظلام. لكن ما إن يخرج من الظلام ويتقدم نحو دائرة الضوء حتى ينتفض قلبها بعنف. عيناه سوداوان مظلمتان ووجهه مشوّه بشدة كأنما قد احترق كله وفمه منفرج عن أنياب كالحراب. هذا ليس كائنًا بشريًا حتمًا. ليس بشريًا وأتى ليحرمها من ابنها. تحاول أن تصرخ فلا يطاوعها فمها تتراجع للخلف وهي تحتضن الطفل بقوة بقدمين ثقيلتين محمّلتين بأكياس من الرمل. عليها أن تهرب. ثم تبدأ العَدوِ في الظلام وهي لا تدري إلى أين تذهب. تعدو وطفلها بين أحضانها لا يكف عن الصراخ، ولهاث وضحكات شيطانية يطبقها المسخ الذي يطاردها وهو يردد في صوت مريع:

«أمّاه. أنا ابنك. إنه أخي وأنا ابنك فلا تتركيني. انتظري يا أماه!»

تجري وتشعر به خلفها. تخشى أن تلتفت فتتعثر. لكن من قال إن الظلام الذي تهرول في جوفه لا يحمل مئات الفرص الحقيقية لما يعرقلها. وبعد حين كانت على الأرض وقد اعترض قدميها شيءٌ ما. وسقط أدهم من يدها فابتلعه الظلام. وحين نظرت للخلف كان المسخ فوقها وقد استعد

ليجثم على أنفاسها. مدّت يدها نحو المسخ لتبعده لكن يديها اللتين التصقتا بالأرض وكأنما تقيدها أغلالٌ خفية. انحنى المسخ فوق جسدها وفتح فمَهُ عن آخره لتبرز الحراب المسننة في وجهها وهو يقول:

- جائع أنا يا أمي. قدّميه لي كي آكل.

وفي يده الأخرى تجد أدهم وقد غاصت مخالب الوحش في صدره وغرقت في دماء الطفل، ثم رفعه نحو فمه وراح ينهش لحمه ويلتهمه.

هنا تصرخ. تصرخ كما لم تفعل من قبل. تصرخ وتنتفض على الفراش لتجد أن صرخة أخرى تجاوب صرختها، كان زوجها هو الآخر ينتفض من الفراش فزعًا في تلك اللحظة هو الآخر وقد خرج من كابوس مريع.

كابوس لن يقدر أن يحكيه لها أبدًا.

4

إنه الحمل وعذابه!

لا مكان هناك للشعور بالراحة أو القدرة على الاستمتاع بمباهج الحياة. إن الشهور الأولى هي الجحيم بعينِه. هي العذاب الأثيني الذي لا فكاك منه.

لا تنتظري يا فتاتي أن تستمعي بمذاق طعام طالما اشتهيته. ولا تتخيلي أن يمكث طعام ما مهما كان بسيطًا في معدتك لأكثر من دقائق قليلة قبل أن تلفظه كما تلفظ كليتك سموم الجسد في مائها. هل تشعرين أنك لستِ على ما يرام. وهل يغيظك هذا الدوار اللعين الذي يعجزك عن السير بثبات لأمتار قليلة؟ يالك من صغيرة لا خبرة لها بمثل تلك الأمور الفسيولوجية العجيبة التي تدور بأحشائك.

إنه الحمل يا عزيزتي!

المعجزة التي لا تكف عن التكرار في كل لحظة. معجزة الخلق والتكوين. معجزة التشكل والتحول. إنّ نُقطةَ الدم المدفونة بين ثنايا طبقات الرحم والمتدثرة به تنتظر الأمر الإلهي لتتحول. سوف يكون هناك الاستطالة والتمدُّد والتفلطح والانبعاج والانشقاق والالتحام. وفي النهاية وبعد أسابيع سيكون هناك أطراف وقلب يدق وأحشاء تتكون. ستكون هناك روح جديدة أرسلها الخالق لهذا العالم وقد اختارت رحمك بالذات كمهبط ومأوى لها.

تتنهد أنغام. تنظر إلى الطعام أمامها شاعرة بالنفور، ولا تعير ما يقوله محسن اهتمامًا حين يطالبها بتناول شيءٍ ما من أجلها ومن أجل ذلك الضيف في أحشائها. يتجعد أنفها محاولًا ألا تصله رائحة الطعام وتتقلص معدتها وهي تغمغم في وهن:

- وما الفائدة من تناول أي طعامٍ يا حبيبي؟ أنت تعلم أنني حتى ولو غالبت نفسي وتناولت شيئًا ما، فلن يمكث بداخلي غير وقت قصير ثم أتقيأه بعدها على الفور، إن مجرد رؤية الطعام تصيبني بالمرض.

- هذا لا يعني أن تستسلمي. لتحاولي. ما رأيك ببعض الجبن، لا أعتقد أنه ثقيل على معدتك.

تهز رأسها معترضة وهي تجيب:

- تقيأته كله بالأمس حين أجبرت نفسي على تناول شطيرة جبن.

- وماذا عن الفاكهة؟ أعتقد أنك ما زلتِ تتناولينها بلا متاعب.

تنهض من أمامه وهي تقول في سأم:

- لن آكلها طوال اليوم. لقد سئمت. لا أدري لماذا لا يشارك الرجال النساء متاعب الحمل. أعتقد أن العدالة تقتضي أن تشاركونا معاناتنا تلك.

يبتسم لطرافة ما تقوله ويقول وهو يضع بعض الأرز في

فمه:

- أعتقد أن المحكمة هي المكان المناسب لمناقشة أمرٍ كهذا. يمكنك أن تسألي أحدَ المحامين ليرفع قضية تتعلق بهذا الأمر.

تبتسم وتتحسس بطنَها بشوق ثم تذهب لحجرتها وتبدّل ملابسها استعدادًا للذهاب للطبيب. إنه موعد المتابعة الدورية وقد أتمّت شهرها الثالث. ينتظران في العيادة المزدحمة التي تعج بالنساء المنتفخات البطون أو الحالمات بأشياء مماثلة. الحوائط تضج بصورِ الرُّضَع والأجنة تداعب أحلام الجميع باللحظة المنتظرة. كانت ديكورات العيادة مناسبة تمامًا، هذا الطبيب رجلٌ يجيد عملَه بحق.

تدخل على الطبيب. يبتسم لها ويقول بعد أن رحّب بها:

- والآن ما هي أخبار الحمل، هل كل شيء على ما يرام؟

تبتسم هي الأخرى في إعياء حقيقي:

- كل شيء رائع، فقط أشعر أني أكاد أن أموت من التعب في كل لحظة.

يقول الطبيب مطمئِنًا:

- لا تبالغي يا سيدتي. هذا يحدث عادة في الشهور الأولى، بعدها تعتادين الأمر وتمضي باقي شهور الحمل في سلام.

- أتمنى أن يكون كلامُكِ صائبًا، لقد سئمت هذا التعب.

ثم يشير لها الطبيب برغبته في فحص الجنين بالموجات الصوتية. تنخفض إضاءة الغرفة بفعل مساعدته الشابة وترقد على ظهرها كاشفة عن بطنها التي استدارت كثيرًا بعد ضمورٍ لازمها عمرها كله. ينزلق البروب البلاستيكي البارد علي بطنها ويراقب الطبيب الشاشة التي تمتلئ بالظلال المبهمة. تلحظ توتره وحركته العصبية. تتوتر هي الأخرى. ثم تهتف بقلق:

- هل الجنين بخير؟

على الفور يجيب الطبيب بصوت شعرت أنه يجتهد ليبدو هادئًا:

- إممم. إنه بخير للغاية. أفضل مما تتخيلين أو تتوقعين.

تنهدت بارتياح بينما راح الطبيب يتابع ما تنقلُه الشاشة له عما يحويه بطنها. الطفل يقارب نموُه الاكتمال وهو لا زال شهره الثالث. لكن الأكثر غرابة إن لم يكن يتوهم هو شكل. لم يكن له تكوين آدم. كانت هناك أربعة أطراف متساوية الطول تنتهي بمخالب وجسد نحيف طويل يلتف حول نفسه ورأس صغير ثم ذلك الذيل الطويل المنبعث من مؤخرته!

هل يرى طفلًا في طور التكوين أم أن تلك المرأة تحمل في رحمِها أحدَ الزواحف؟

يشعر الطبيب بالاضطراب مما يراه، كانت المرة الأولى التي يرى فيها شيئًا كهذا؟ يسألها محاولًا التحكم في نبرة صوته:

هل تقتنون حيوانات أليفة في المنزل؟

يتبادل محسن النظر مع أنغام، ويجيب هذه المرة:

- أنغام تربي كلبًا صغيرًا.

- وماذا عن القطط؟

يسأل الطبيب دون أن يلتفت لهما:

- كلا، لا أحد منّا يحب القطط.

يعرف جيدًا الأمراض التي تنتقل إلى الحوامل وأجنتها عن طريق الحيوانات، لكنه لم يرَ تشوُّها يمكن لأي مرض معدٍ أن يسبب مثل هذا التشوه المريب. يحرك القضيب الكريستالي للحصول على أفضل صورة ممكنة للجنين ليتأكد من أن ما يراه ليس خدعًا وظلالًا تفعلها الموجات فوق الصوتية أحيانًا. لكن تكوين الزواحف أبدًا لا يذهب. في النهاية يجفف العرق عن جبهته وهو يمسح بطنها بمنديل ورقي ليذيل الجل المرطب وقد قرر ألا يتعجل إخبارها هي أو زوجها بما رآه. لينتظر قليلًا ريثما يدرك ما يحدث؛ لذا قال لها وهو يفكر ما فيما عليه فعله لو تأكد مما يراه الآن، هل يخبرهما أن أنغام تحمل جنينَ أحد الزواحف في أحشائها وأنه لا بُدّ من إنهاء هذا الحمل على الفور؟ أمر عسير وخاصة أن يعرف جيدًا كيف حدث هذا الحمل الصعب؛ لذا قال لهما موعدًا:

- لنقل إن كل شيء على ما يرام، لكن أرغب في رؤيتك ثانية يا سيدتي بعد أسبوعين.

تشعر أنغام أن صوته مضطرب يخفي في طياته شيئًا ما،

تقول له وهي تنظر إلى وجهه بثبات:

- هل هناك من خطب يا دكتور، من فضلك أخبرني لو كان هناك خطأ ما.

يتحاشى الطبيب النظر إلى عينيها وهو يجيب بسرعة:

- كلا يا سيدتي، ليس الأمر كذلك، إنها مجرد متابعة روتينية لمراقبة الجنين.

وفي السيارة تغمض أنغام عينيها وهي تقول:

- كدت أصاب بجلطة حين شعرت بتوتر الطبيب أثناء الفحص. انتظرت أن يخبرني أن الطفل ليس بخير. خشيت حتى الموت أن أفقده هذه المرة. حمدًا لله أنه بخير. حمدًا لله.

يرمقها محسن بوجه ممتقع قليلًا ويربت على كفها الذي يلامس كفه ويهمس:

- لن يستطيع ما أن ينتزع الطفل منّا. لن أسمح لأي مخلوق أن يفعل.

ترمقه بحيرة وهي تستعيد الكابوس الذي تراه من حين لآخر. تتذكر ذلك المسخ المخيف الذي يناديها بـ «أمّاه». المسخ الذي التهم أدهم. الصغير. كابوس بشع راح يتكرر بنفس التفاصيل في كل مرة حتى إنها صارت تخشى أن يتحول لحقيقية في يومٍ ما.

تتساءل في أعماقها وهي تراقب محسن وهو يقود السيارة،

لماذا قال لها أنه لن يسمح لأحدٍ ما بانتزاع الطفل منهما، الكلمات غريبة والمعنى غريب. ربما لو قال لن نفقده أبدًا لما شعرت بالحيرة. لماذا يعتقد أنها تخشى أن يُفقِدها أحدٌ ما ابنها. إنها لم تخبره من قبل بحلمها المخيف. لكن ما أدراها أنه لا يرى كوابيس مشابهه لكوابيسها اللعينة. إنها تعلم أن الكوابيس لا تفارقه هو الآخر. كوابيس تؤرقه في كل ليلة ويصحو منها فزعًا مضطربا مذعورًا. كوابيس لم يخبرها بما يراه فيها، بل وقرر منذ شهر وللمرة الأولى منذ تزوجا، أن يبيت في حجرة مستقلة كي لا يزعجها بصراخه كل ليلة.

طالما سألته ما الذي يراه في أحلامه ويدفعه للصراخ هكذا. لكنه أبدًا لا يجيبها. فقط يدعي الإجهاد وقلة النوم والتوتر. سألته أن يرى طبيبًا ما، فوعدها أن يفعل لو اقتضى الأمر هذا. لكن عينيه اللتين أحاطتهما الهالات السوداء ولم تعد تفارقها أبدًا أنبأتها أنه لن يفعل.

ترى ما الذي يخفيه عنها هو الآخر؟

لكنه لن يخبرها. وكيف يمكنه أن يفعل؟ كيف يمكنه أن يخبرها عن شبح مرزوق الذي يلازم صحوه ومنامه ولا يفارقه أبدًا. كيف يخبرها بصرخات الطفل المستغيثة به، والتي ما زالت تتردد بلا انقطاع في أذنيه. تلك الصرخات التي أطلقها مرزوق من قلب القبر الملعون حين تركه فريسة لتلك الشياطين.

أم تراه يخبرها بكوابيسه التي يهاجمه مرزوق فيها. هنا لا

يعود الطفل طفلًا بل يصير مسخًا. مسخًا لعينًا في كل مكان حوله. مسخ يطارده في كل مكان ولا هدف له إلا شيء واحد. الاستيلاء على أدهم، طفله المنتظر، والفتك به.

يهرب بالطفل من أمامه وهو يرجوه أن يدع الطفل وشأنه فيتحدث مرزوق بصوت كالفحيح:

- لكنه أنا. إننا واحد. أنا وهو نفس الشخص. دَعْه لي كي ألعب معه. دعه لي ولن أؤذيه.

يحاول الاختباء في مكانٍ ما ليجد مرزوق بجواره فجأة دون أن يدري كيف جاء. يرتجف حينها برعب وهو يرى أسنانًا وأنيابًا كالحراب تنهش جسده مرة ومرة أخرى جسد الطفل دون أن يقدر على فعل شيءٍ ما. وفي كل مرة يستيقظ بعد أن يكون مرزوق قد فتك به أو فتك بالطفل الرضيع.

يشعر أنه في سبيله للجنون حتمًا. لن تحتمل أعصابه كلّ هذا طويلًا. لن تحتمل أبدًا. لكنه يعلم أنه يستحق ما هو أكثر من هذا. لقد تسبب في قتل طفل بريء وثَقَ به يومًا. فهل بعد هذا جرم أبشع.

يطلق نفير السيارة لينبه سيارة دنت بشدة من سيارته، ثم يكمل طريقه في شرود.

5

تدهور حاله في العمل كثيرًا، الكثير من الأخطاء في حسابات العملاء، والكثير من التوتر والتعامل بعصبية ونفاد صبرٍ مع العملاء. وجد محسن نفسَه مرةً واحدةً أمام مدير الفرع الأستاذ حمدي السيد الذي استدعاه بعد مشاجرة نشبت بينه وبين أحد العملاء الذي احتدّ عليه لتعطيله لنحو نصف الساعة دون أن ينهي معاملاته. كان مديره شابًا لا يكبره إلا ببضعة أعوام قليلة، ورغم حزمه ونشاطة الجم في أداء عمله إلا أن أغلب موظفي الفرع في البنك يحبونه، دخل محسن الغرفة فأشار إليه مدير الفرع بالجلوس قائلًا:

- تفضل يا أستاذ محسن بالجلوس.

بدت خلجات محسن متقلصة مشدودة من التوتر، ووجد نفسَه يقول في صوت مرتفع مبادرًا المدير:

- لو كنت تتحدث عن ذلك العميل يا أستاذ حمدي، فأحب أن...

قاطعه حمدي في لطفٍ لا يخلو من الحزم:

- لسنا هنا لنتحدث عن أيّ عملاء، أو حتى شيءٍ في العمل يا أستاذ محسن. إنه عنك.

أخفض محسن رأسه متوترًا، كان أكثر من يدرك أنه لا يقوم بعمله المعتاد كما ينبغي، وراح في سرعة يبحث في عقله عمّا قد يدافع به عن نفسه أمام مديره، في نفس الوقت

الذي واصل فيه حمدي الحديث وهو يلاحظ كفَّي محسن المرتعشتين:

- الأمر ليس رسميًا يا أستاذ محسن، لنقل إنه حديث ودي بين زميلين قديمين، لقد عملنا سويًا لسنوات، ويمكنني القول إننا أصدقاء إلى حد كبير.

- هذا يشرِّفني ويسعدني يا أستاذ حمدي.

قالها محسن فبادره حمدي قائلًا:

- ماذا هناك يا أستاذ محسن. لست أنت الموظف المثالي في الفرع الذي نال ترقيتين استثنائيتين في بضعة أعوام قِصَار. لقد صرت شخصًا آخر، شخصًا كثير الأخطاء في العمل، ولدي في آخر شهرين أكثر من 10 شكاوى مُقدَّمة من العملاء ضدك. هل لديك تفسير لهذا.

بالطبع لديه تفسير قوي لكل ما يحدث. كيف يعمل بجِدّ وقد تسبَّب في مقتل طفل بريء ليحظى هو بالذرية، كيف يمكنه أن يعمل بتركيز وصراخ الطفل وهو داخل القبر لا يفارق رأسه وعقله، كيف يتعامل بصورة طيبة مع العملاء وهو لا يكاد يحصل على أي ساعاتٍ من النوم والكوابيس دومًا بانتظاره فور أن يغلبه النعاس. يا أستاذ حمدي لدي تفسير قوي لكل التقصير والمشاكل التي أتسبب بها في عملي هذه الأيام، لكن آخر ما أقدر عليه هو أن أخبرك بأسبابي الحقيقية، سيكون الثمن هو حياتي نفسها، ولو أخفيت أسبابي عنك فقد أفقد وظيفتي هنا وعملي، برأيك لو كنت مكاني ماذا تختار؟!

تعلّل أمام مديره بالإرهاق وبعض المشاكل في البيت، وفي النهاية أخبره مديره أنه في إجازة مفتوحة المدة حتى ينتهي من كل مشاكله، ويمكنه بعدها العودة لعمله، شرط أن يعود الموظّف النشط السابق.

ترك البنك على الفور وقد أراحه هذا القرار، إنه بحاجة لأن يختلي بنفسه وأن يبتعد عن العالم كله، والغريب أنه تمنى لو تتركه أنغام هي الأخرى ولو لبضعة أيام وتنتقل للعيش في بيت أسرتها. كان يشعر أنه على حافة الجنون، وخاصة وأنه يرى دومًا أثر جريمته، يراه في هزال زوجة البواب التي أهملَت كلّ عملِها واكتفت بالجلوس طوال الوقت أمام مدخل العمارة وهي في ذهول عن العالم كله، كما رأى أثر جريمته في وجه البواب الذي راح يهمل عمله وإن فعل شيئًا فإنه يقوم به كرجل هَرِم بلغ المائة عام من عمره. لقد شاخ الرجل وتهدّم قبل الأوان. ولهذا راح محسن يتحاشى التعامل معهما وهو عائد لشقته أو مغادر المكان. الشيء الذي كان يزيد توتره هو نظرات زوجة البواب له ولزوجته، شعر أنها ترمقهما في كره حقيقي، هل شعرت المرأة أن طفلهما القادم كان ابنها هو الثمن المقدم لمجيئه؟ خاطر مرعب.

عاد للمنزل فوجده صامتًا باردًا كالقبر، لا بُدّ أن أنغام ما زالت نائمة كعادتها هذه الأيام، تنام أغلب الوقت وقد أخبرتها أمها أن هذا من أثر الحمل، وأن النوم الكثير لا ضرر منه. كان آخر ما قد يفكر في فعله هو إيقاظها؛ لذا خلع حذاءه وتحرك على أطراف أصابعه نحو حجرة نومه، كانت الستائر الثقيلة

في الشقة كلها مسدلة؛ لذا كانت الشقة كلها غارقة في الظلام، فتح باب حجرة نومه في هدوء، وفي اللحظة التالية تسمر في مكانه في فزع حقيقي، كانت زوجته راقدة على ظهرها على الفراش وهي نائمة، وكانت بطنها المنتفخة مكشوفة تمامًا، وأمامها كان هناك شخص يعطي ظهره للباب وينحني برأسه فوق بطنها. من هيئته الصغيرة تعرفه محسن على الفور..

إنه مرزوق بلا شك!

ووجد محسن نفسه فجأة جامدًا في مكانه وكأنما أصابه شللٌ مفاجئ فلم يفعل أي شيء غير أن قال بلا وعي:

- مرزوق.

هنا استدار ذلك الشيء نحوه، وبرعب لا حدّ له وجد محسن ينظر إلى رأس ضامر متيبس ميت. عينان جاحظتان لا حياة فيهما وأسنان مسودة بالتراب متقلصة، أراد محسن أن يصرخ، أن يندفع للزود عن زوجته أو حتى يهرب. لكن قيودًا خفية جمدته في مكانه وكأنه في كابوس لعين. فقط ظلّ قلبه قادرًا على التعبير عن ذعر لا حد له، فراح يخفق في جنون، وكأنه يرغب في مفارقة قفصه الصدري والهرب بعيدًا عن هذا الجنون الذي يدور الآن.

كان هناك ضوء شبحي قرمزي ينبعث من كفي الطفل الطفل ويخترق بطن أنغام، راسمًا شكلًا عجيبًا على جلد بطنها يشبه جزيرة قرمزية وسط بحر من لون الجلد الأبيض. ظلّ مرزوق

أو شبحه رابضًا فوق أنغام لوقتٍ طويلٍ وظلّ الضوء القرمزي ينبعث من بين أنامله نحو بطنها لوقت طويل، وظل محسن في مكانه يراقب كلّ هذا في عجز كامل، وهو يخشى ما سوف يفعله هذا الطفل الميت في ابنه.

في النهاية اختفى الضوء الشبحي من أنامل مرزوق، فعاد الظلام ليطبق على المكان. هبطَ مرزوق من فوق الفراش ورآه محسن كظِلٍّ من الظلمة وهو يتجه ببطءٍ شديدٍ نحوه، لاحظَ كذلك أن البرودة التي تغلّف المكان راحت تزداد، وبعد لحظات كان مرزوق واقفًا بجواره تمامًا ورأسه في مستوى أذن محسن. وبصوت لا ينتمى لعالم الأحياء همس في أذن محسن:

- سأعود!

ثم واصل طريقه مبتعدًا بخطوات شبحية لا صوت لها. مضى بعدها وقت لم يدرِ محسن كم طالَ وهو قابعٌ على الأرض على ركبتيه بعد رحيل مرزوق، ثم انتبه فجأة لضوء المصباح الكهربائي المشتعل وصوت أنغام زوجته التي كانت تقف أمامه في حيرة وهي تقول بنبرة متوترة:

- محسن.. محسن.. ما بكَ؟ ولماذا تجلس أمام الحجرة هكذا؟!

وكأنما أفاق من النوم، رمقَها محسن في غير فهم للحظة قبل أن يتذكر عقله كلّ شيء، فيدور برأسه في المكان في ذعر لا حدّ له وكأنه يبحث عن عدوٍّ يختفي حوله، ثم يعود

بوجهه نحو أنغام وهو يقول بصوت به أثر من دموع راحت تنهم:

- حبيبتي، هل أنتِ بخير؟

أجابته أنغام وهي ترمقه في بعض الخوف:

- أنا بخير، فقط كدت أموت ذعرًا حين استيقظت لأجدك جالسًا هكذا أمام الباب تحدق نحوي في الظلام بعينين جاحظتين لا ترمشان، لماذا فعلت هذا يا محسن؟

نهض على الفور دون أن يردّ عليها، ورأته أنغام وهو يتحرك في الشقة كلها ويضيء كلّ مصابيحها الكهربائية ويفتش بعينه في كل ركن عن شيء ما، أو شخص ما! وفي خوف راح يتعاظم بداخلها غمغمت أنغام مرة أخرى متسائلة:

- ما الذي تفعله يا محسن؟ بالله عليك أجبني. أنت تخيفني هكذا.

- لا شيء.. لا شيء!

أجابها محسن، ثم اتجه ببطء نحو باب الشقة وبيدٍ ترتجف أدار مقبض الباب وفتحه، ثم نظر للرواق الطويل أمام الباب في ذعر لا حدّ له. ارتعش ضوء المصباح الموجود فوق الباب للحظة ثم انطفأ المصباح تمامًا، كانت هناك عشرات القطط السوداء تحيط بباب الشقة، قطط مختلفة الأحجام، لكن لونها أسود كليل بهيم، وكلها كانت تتجه برأسها نحو باب شقته في جمود كالتماثيل وكأنها تقوم بصلاة وثنية غامضة.

تراجع محسن للخلف خطوة كاملة في خوف مما يراه، وزاد خوفه حين لاحظ جمود القطط التي تنظر إليه، لم يهتز جسد أي واحدة منها ولم يهتز حتى ذيل قطة واحدة.

ومن خلفه سمع أنغام تقول له في خوف:

- ما الذي تفعله عندك، وإلى ماذا تنظر يا محسن؟

من الداخل تناهى لأسماعهما صوت الكلب وهو يعوي في صوت مكتوم مريب، بينما أشار محسن لمدخل الشقة المظلم بعد احتراق المصباح الكهربائي وردّد بصوت مرتعش:

- مِن أين أتت كل تلك القطط؟

نظرت أنغام حيث يشير، في الواقع لم ترَ أيّ شيءٍ، كان مدخل الشقة أمامها فارغًا تمامًا من أي كائن حي، فنقلت عينيها إلى زوجها وقالت:

- أي قطط تقصد، لا أرى أي قطط يا محسن، ماذا بك وهل تريد إفزاعي؟

التفت محسن نحوها ورأت وجهه يرتجف وقد تعرّقَت جبهته وتدلت حول جسده ذراعاه وهما ترتعشان وقال محسن:

- القطط السوداء يا أنغام، ألا ترينها؟ إنها هناك أمام الباب!

تراجعت أنغام للخلف وهي تشعر بالخوف الحقيقي منه، وكأنه ليس زوجها الذي تعرفُه منذ سنواتٍ طويلة، بينما ظلّ محسن يرمقها للحظات وهو يشعر بالحيرة مما تقوله ثم عاد

بنظره نحو الباب، هذه المرة لم يكن هناك أي قطط بالفعل، تحرّك للأمام ثانية واجتاز الباب وتوقف في الردهة أمامه وراح ينظر للرواق الخالي وللسلم وكأنه يرغب في التأكد من أن القطط قد رحلت تمامًا. عاد بعدها للداخل وأغلق باب الشقة ثم أسند ظهره له واتكأ عليه وهو يلهث. بينما أولَته أنغام ظهرها وعادت لحجرتها وقد شعرت أنها لا تحتمل ما يفعله زوجها وأغلقت الباب عليها وراحت تبكي في صمت.

لم يهتم محسن بها وانتظر نحو الدقيقة ثم التفت إلى الباب وقرّب رأسه من ثقبه وراح ينظر ثانية لمدخل الشقة، بالفعل قد ذهبت القطط. تنهد في ارتياح، ثم اتجه الى حجرة المعيشة وأطفأ نورَها، ثم رقد على الأريكة وراح يتطلع إلى السقف في خواء رهيب.

قرب المغرب غادرت أنغام حجرتها واتجهت إليه، كانت عيناها حمراوين كالدم بعد أن ظلّت تبكي لوقت طويل، أضاءت المكان فوضَع محسن كفّه على وجهه وأغمض عينيه وكأنما يؤلمه الضوء وقال:

- كلا يا أنغام، أغلقي هذا الضوء اللعين من فضلك؟

أغلقت أنغام الضوء على الفور، كانت تدرك أن زوجها يواجه خطبًا ما، شيئًا يؤرقه أو يخيفه، ولأنها تعلم مدى تكتمه وتحفظه حتى معها في بعض شؤونه، فإنها لم تعاود سؤاله عما به وعن سر كل التصرفات المريبة التي يقوم بها، لذا قالت في هدوء:

- هل ترغب في تناول شيء ما؟

- لا أشعر بالجوع.

لم تعقب، فقط ظلت جامدة في مكانها للحظة قبل أن تقول:

- وماذا عن موعد الطبيب بعد قليل، هل ستأتي معي؟

- معذرة يا أنغام، أشعر بالتعب، يمكننا تأجيل الموعد أو يمكنك الذهاب بمفردك.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يفعلها، لم يتركها يومًا تزور أيّ طبيبٍ بمفردها، لكنها مرة أخرى لم ترغب في التعقيب فقالت بنبرة هادئة:

- لا بأس، سوف أذهب بمفردي. وسوف أذهب إلى ماما بعدها، سأبيت معها هذه الليلة وسأعود في الصباح.

لم يردّ عليها مرة أخرى، فغادرت أنغام الشقة وتركته في الظلام بمفرده، ظلّ في مكانه دون أن يتحرك، وبعد حين غرق في نوم مضطرب.

كانت الشقة غارقة في الظلام، وفي أركان المكان تراقصت نيران شيطانية في المشاعل الخشبية، كانت زوجته راقدة في منتصف الصالة على ظهرها عارية تمامًا من ملابسها وعلى وجهها ارتسمت ابتسامة سعيدة، وحولها كانت هناك عشرات القطط السوداء تنتصب في جمود شيطاني بينما وهي تردّد تراتيل شيطانية أو تعاويذ ملعونة قادمة من زمن

بعيد منسي. كان مرزوق يجلس خلف رأس زوجته وقد أحاط رأسها بكفيه وهي ينظر إليها بعينين مظلمتين وهو يبتسم لها، بينما كان محسن معلقًا من ظهره في السقف وهو يرى كل ما يدور من أعلى. رأى ظلالًا مريبة تتحرك في حوائط المكان، ظلالًا يعرفها ويحفظها جيدًا، ظلالًا استدعاها قبل شهور في تلك المقبرة اللعينة ليقدّم لها مرزوق كقربان.

ارتفعت حدة الانأشيد فجأة وتراقصت النيران في عنف ثم استطال أحد القطط السوداء فجأة وتحول لشيء آخر، صار شيطانًا في تلك اللحظة، رأس حيوانيه وقرون ملتفة حول الأذنين الضامرتين وجذع منحنٍ كرجل عجوز وقدمين مقوستين للأمام تنتهيين بحافرين. رفع ذلك الشيطان رأسه لأعلى فرأى محسن الشر كله ينبعث من عينين حمراوين تضجان باللهب، ثم عوى ذلك الشيطان فجاوبته القطط بالعواء مثله. اتجه الشيطان بعدها نحو أنغام ورقد فوقها وقد أحاط جسدها كله بجسده وأطرافه الحيوانية الطويلة.

ارتفع صوت التراتيل أكثر وأكثر وراحت جدران المنزل في الارتعاش، ومعها بدأ الشيطان في اغتصاب زوجته، الغريب أن محسن لم يشعر في تلك اللحظة بالغضب لما يحدث مع زوجته، وكأن ما يحدث لها أمرًا طبيعيًا، والأكثر عجبًا أن زوجته بدت مستمتعة تمامًا بما يحدث معها. انتهى الشيطان مما يفعله بها ونهض من فوقها فلاحظ محسن أن بطنها زاد حجمه واستداراته أكثر وأكثر، انكمش الشيطان ثانية وعاد ليتشكل في صورة قط أسود ومعه استطال قط آخر ليغدو

كالسابق، شيطان آخر. رفع رأسه لأعلى نحو محسن ثم اتجه لأنغام وراح يغتصبها وهي مستمتعة به، انتهى منها، ولما نهض كانت بطنها قد تضخمت مرة أخرى، تكرر الأمر مع كل القطط السوداء وفي كل مرة كانت بط أنغام يتضخم أكثر وأكثر، وما زال مرزوق قابعًا خلف رأسها في استمتاع حقيقي.

في النهاية صار بطن أنغام ضخمًا للغاية حتى غطى جزءًا كبيرًا من الصالة، لكن الألم لم يرتسم للحظة على وجهها وهي هكذا. رفع مرزوق رأسه نحو محسن واتسعت ابتسامته في تشفٍّ وفي اللحظة التالية صمتت كل القطط عن ترديد تراتيلها الملعونة. وفي ترقب انتظر محسن ما سوف يحدث بعدها. لم يتأخر الجواب كثيرًا ففي اللحظة التالية اندفعت كل القطط نحو جسد أنغام وراحت تمزقه في وحشية كبيرة، راحت أنغام تصرخ في ألمٍ رهيبٍ ونظرت إلى محسن المعلّق بالسقف في ضراعة وكأنها تستنجد به لينجدها، لكن محسن لم يفعل أيّ شيءٍ، كان يشعر بالعجز وقد أدرك أنه لن يستطيع إنقاذها حتى لو أرادَ أو حاوَلَ.

هنا تحرّك مرزوق نحو بطن أنغام الذي تمزّق، وبيد تنتهي بمخالب حادة راح يمزق البطن أكثر وأكثر والماء تتفجر من جسد أنغام التي ظلت تصرخ. ومن داخل بطن أنغام الضخمة خرج الطفل الجديد، ابنه أدهم، كان عاريًا وجسده مغطى بالدماء.

من اللحظة الأولى كان محسن يدرك شكل طفله، إنه مرزوق

أو هو نسخة أخرى من مرزوق، خرج الطفل من بطن أنغام، وفي اللحظة التالية فتح فمه فظهرت أنياب شيطانية حادة انحنى بعدها على أمه وراح يشارك كل القطط السوداء في وليمتها البشرية. وبينما شعر محسن برعب لا حدّ له في تلك اللحظة وراحت أنفاسه تختنق رفع الطفل رأسه نحوه قبل أن يقول بنفس الصوت الصوت غير الآدمي الذي تحدّث به مرزوق من قبل:

- أبي.

هذه المرة أفلتت الصرخة من جوف محسن فانتفض جسده في فزع مريع ونهض من نومه. أدرك أنه قد كان يحلم. كان الظلام يغرق المكان كله من حوله، وكانت أنغام ترقد إلى جواره في الفراش، لكنه ومنذ الوهلة الأولى كان يعرف أنهما ليسا بمفردهما في الشقة. كان يشعر بأن هناك شخصًا آخر في المكان. راح يتلفت حوله في شك وتوتر، ثم نهض من فوق الفراش وتحرك نحو ذلك الضوء القرمزي الغريب المنبعث من الصالة. هناك كان مرزوق يقبع على الأرض وهو يلتهم شيئًا ما. اقترب محسن منه أكثر وأكثر ليدرك كنه ما يأكله مرزوق، كان الكلب الصغير الذي تقتنيه زوجته. وكان مرزوق يمزقه في تلذّذ.

تجمد محسن في مكانه وراحت أنفاسه تتسارع في تتابع رهيب. أي جنون هذا الذي يعيشه وكيف كان يحلم بمرزوق وحين يفيق يجده في الشقة.

رفع مرزوق رأسه نحوه وابتسم له فظهرت أنيابه وقال:

- هل تأكل؟

كان المكان باردًا للغاية في تلك اللحظة وانبعثت رائحة كبريتية عنيفة من كل زواية أو جدار في المنزل، وبينما تراجع محسن بظهره للخلف خرجت من كل الجدران من حوله عشرات القطط السوداء. تلفت محسن حوله في رعب جم وصرخ:

- كلا. اذهبوا عنّي أيتها الشيطان. اتركوني وشأني.

اقتربت القطط منه، وقد طوقته بالكامل ومن خلفها قال مرزوق:

- السادة هنا من أجلك هذه المرة. لقد حان موعدك.

ثم راحت القطط تردّد تعويذتها الملعونة. نفس التراتيل الشيطانية التي كانت تردّدها في الكابوس، ومعها راحت أجسادهما تستطيل وتتشكل في صورة الشياطين التي رآها محسن في نفس الحلم السابق. لم يكن هناك من مهرب هذه المرة وقد أحاطت الشياطين بمحسن، أراد أن يصرخ ثانية فأدرك أن لا صوت يخرج من حنجرته رغم كل محالاوته، ثم امتدت أيدي الشياطين كلها نحو وقبضَت على جسده في عنف فأغمض عينيه في قوة وهو ينتظر الألم المريع الذي شيشعر به حين تبدأ تلك الشياطين في تمزيقه.

لكن الصمت كان هو ما شعر به حينها فتح عينيه فوجد

نفسه راقدًا على ظهره ويديه وقدميه مقيدة إلى الأرض بسلاسل حديدية. حرك رأسه للناحتين فعلمَ أين يكون، كان داخل المقبرة القديمة التي مات فيها مرزوق. كانت الشموع السوداء هناك، كان البخور الجاوي يغمر المكان في كثافة، كان جسد مرزوق راقدًا إلى جواره وقد اسودّ تمامًا. شعر برعب هائل وهو لا يدري كيف انتهى به الحال في هذا المكان. في اللحظة التالية ومن باب القبر المفتوح ظهر اللحاد العجوز الذي قادَه من قبل إلى المقبرة، كان هناك شيء مختلف فيه هذه المرة، وحين دلف اللحّاد إلى داخل القبر أدركَ محسن ذلك الشيء المختلف. كان فم اللحّاد غير موجود. فقط أنف وأسفله طبقة كاملة من الجلد. رمقه اللحّاد في برود ثم رفع يده عاليًا فرأى محسن نفس الخنجر الذي ذبح به محسن البومة في القبر. وفي اللحظة التالية هوى اللحّاد بالخنجر نحو قلب محسن فشهق في عنف.

هذه المرة أدرك محسن أنه قد عاد إلى عالم الحقيقة. لقد كان في حلم مركّب، أو كابوس مركّب. كابوس بداخل كابوس، لكن هذا لم يكن يعني أن الرعب قد ذهبَ. فمنذ الوهلة الأولى أدرك أنه ليس في حجرة نومه أو حتى في شقته كلها. كان في مكان بعيد للغاية عن منزله، كان بداخل قبر مفتوح، نفس القبر الذي تركَ فيه مرزوق، نهض بسرعة فاصطدمت رأسه بسقف القبر فشعر بألمٍ رهيبٍ قبل أن ينساب من أعلى رأسه خيط رفيع من الدماء، تحسّسها بأنامله وهو يتأوّه فأدرك أنه لا يحلم هذا المرة، غادر القبر

بسرعة فعلم أنه ما زال في منتصف الليل أو بعده بقليل. اكتشف محسن أنه ما زال يرتدي ملابس نومه.

كان السؤال الملح هو كيف انتهى به الحال في المقابر، وهل جاء إلى المكان هكذا مرتديًا ملابس نومه، رمق شواهد القبور التي تنتصب حوله في توجُّس. كانت غارقة في الظلام وقد ظلّلها ضبابٌ خفيف. حاول محسن أن يتذكر طريق الخروج وهو يسير بتخبط. ثم كاد قلبه أن يتوقف فجأة حين ظهر اللحاد العجوز من خلف إحدى الأشجار العتيقة فجأة. كان يحمل في يده فانوسًا غازيًا مشتعلًا. لاحظ محسن في رعب تلك النظرة غير المرحّبة في وجه اللحّاد. كان يرمقه في جمود، كان محسن ليستنجد به في وقت آخر. لكنه في تلك اللحظة كان يراه شيطانًا هو الآخر ينتمي إلى تلك الشياطين التي تلازمه في كوابيسه، تراجع أمامه ثم دار محسن حول أحد الشواهد من حوله وراح يعدو مغادرًا المقابر كلها.

لم يتوقف محسن إلا حين ابتعد عن المقابر كلها بمسافة كافية لتشعره بالأمان. حينها التفت للخلف ليتأكد أن لا أحد هناك يتبعه.

لكنهم كانوا هناك متوارين في الظلام. عشرات القطط السوداء، ومرزوق، وبجوارهم وقف اللحاد العجوز وهو يراقبه في جمود.

6

تبدّل كل شيء في حياة الدكتور مدحت صبري - طبيب النساء والتوليد الشهير- بعد أن بدأت السيدة أنغام مؤمن في ارتياد عيادته ليتابع ويشرف لها على حملها. أخبرته أنغام أنها انتظرت هذا الحمل طويلًا، وأن لها محاولات سابقة في الحمل عن طريق التلقيح الصناعي لم تُكلّل بالنجاح ولم تكتمل أبدًا. في المرة الأولى وحين فحص الرحم بجهاز الأشعة التلفزيونية كان الأمر طبيعي جدًا، مجرد جنين في طور التكوين الأول، لم يشك في شيء ولم يشاهد ما قد يريبه، لكن المرة التالية بعد شهر كامل وحين راح يفحص أنغام بجهاز الأشعة اختلف الأمر، لم يجد بداخلها تكوينًا معتادًا لجنين بشري، بل كان تكوينًا شِبه مكتمل لأحد الزواحف. شعر بالرعب وهو يرى ما يحدث أمامه للمرة الأولى في حياته المهنية التي تمتد لنحو عقدين من الزمن كطبيب لأمراض النساء والتوليد.

هل تحمل تلك السيدة وحشًا غير آدمي في أحشائها؟

بالطبع لم يخبرها يومها بمخاوفه وانهمك فورَ أن غادرت العيادة في مراجعة مراجع الطب بحثًا عن حالات مماثله. في الواقع لم يعثر على شيء في أي مرجعٍ جادّ. فقط في بعض كتب القدماء التي لا تستند إلا على أحاديث الرواة كان هناك من حملت بحمار أو ناقة صغيرة أو حتى كلب صغير، وأوعزها الكتاب إلى مضاجعات غير سوية للنساء مع

الحيوانات. وكرجل عِلمٍ كان يدرك أن كل تلك القصص هي مجرد خزعبلات لا أساس لها من الصحة ولا يؤيدها العلم. فمن المستحيل أن ينجح حيوان منوي غير آدمي في تلقيح بويضة بشرية. إذًا ما سر حمل أنغام؟

لم يعرف الإجابة. المشكلة أن هذا كان البداية فبعد يومين زارته سيدة أخرى في شهور الحمل الأولى، وحين فحصها وجد نفس الشيء، حيوان زاحف ضخم شبه مكتمل. ثم بعد بضعة أيام أخرى جاءت سيدة ثالثة تحمل في أحشائها نفسَ الحيوان المنتمي لسلالة الزواحف.

أدرك أن الأمر غير طبيعي، وكان هناك هاجس خفيّ في نفسه يحدّثه أن الأمر لا يتعلق بمجرد تشوهات جنينية سببها عقار ما أو التعرض لمادة مشعة. النساء الثلاث كن يحملن نفس الظروف تقريبًا، سنوات طويلة من العقم ومحاولات فاشلة للإنجاب عبر التلقيح الصناعي، ثم ذلك الحمل الذي يحدث فجأة بصورة طبيعية. هل في الأمر لعنة ما، أم هو سحر شيطاني؟

العجيب أن الطبيب الذي يعيش بمفرده بعد أن انفصل عم زوجته راح يعاني بعدها من كوابيس لا تنتهي لا يرى فيها غير تلك الأجنة غير الآدمية وهي تخرج من بطن أمهاتها ثم تهاجمه أو تهاجم مساعديه أو حتى تهاجم أمهاتهم. كوابيس راحت تقضّ مضجعه في كل ليلة، بعدها راحت رسائل غامضة تأتي لهاتفه المحمول وهي تأمره بالمحافظة على سر هؤلاء النساء وأن يساعدهن قدر استطاعته في المحافظة

على حملهن وإلا أصابه شرٌ لا قِبَل له به.

بعدها راحت أحداث مريبة تدور من حوله، قطط سوداء تربض أمام العيادة وكأنها تنتظره حتى ينتهي من عمله، أشخاص غامضون يتبعونه في كل خطوة يخطوها في حياته، وأخيرًا أشباح تظهر وتختفي في شقته من حين لآخر.

لم يحتمل كلّ هذا وراحت أعصابه تتوتر وصار يدخن في عصبية طوال الوقت، فكّر في أن يطرد هؤلاء النساء الثلاث من عيادته ويطالبهن ألا يعودن لعيادته ثانية وأن يبحثن لهن عن طبيب آخر. لكن شيئًا غامضًا في نفسه كان يمنعه من فعل هذا. تحوّل بعدها عقله للبحث عن حلٍّ آخر لهذا الأمر الشيطاني الملعون.

سوف يجهض بنفسه حمل تلك النسوة ليخلص العالم من شر شيطاني محتمل، لكن كان عليه أن يفعلها بطريقة ذكية كي لا يتم إدانته بارتكاب تلك الجريمة، أعدّ أحد العقاقير التي تُعطى بالحقن والمشهورة بالقضاء على الأجنة، ثم قرّر أن يبدأ ما انتواه بالسيدة أنغام، المريضة الأولى التي بدأ الأمر بها والتي صادفَ أنها سوف تزوره اليوم.

من حسن الحظ أنها جاءت بمفردها دون زوجها، أخبرها أنه يريد أن يفحصها بجهاز الأشعة التلفزيونية، بالفعل كان الكائن الشيطاني ما زال بداخل أحشائها وقد تضاعف حجمه. ابتلع ريقه بصعوبة وهو يرى كيف يتحرك الذيل ذات اليمين وذات اليسار بصورة مرعبة، ثم قرّر أن يبدأ عمله، جهز المحقن

الموجود به العقار المميت ثم أخبر أنغام أنه مصل من أجل تحصين الجنين من الجراثيم الضارة. رمقته أنغام في ريبة، فأبعد نظره عنها وكأنه يخشى أن تفضحه عيناه، وسمعها تقول:

- هل هذا المصل ضروري ومهم؟

- إنه مهم لكل السيدات بعد الشهر الثالث من الحمل.

ثم غرز المحقن في ذراعها بلا تردُّد، تأوهت أنغام للحظة فقال لها مطمئنًا:

- إنه يولم قليلًا، لكن الألم سرعان ما يزول.

ثم ودّعها وهو يخبرها أن موعدها القادم سيكون بعد شهر قادم، غادرت أنغام وهو متأكد أنها لن تأتي له مرة أخرى. لن تصاب الأم بضرر جسدي في الغالب من تأثير هذا العقار السام، فقط سيكون هناك نزيف حاد لطرد الجنين. لكن الأثر الأكبر سيكون على الجنين. سوف يصاب الطفل بفشل تام في وظائف أعضائه الحيوية كلها وسيهلك في خلال ساعة أو اثنتين.

كان يشعر بتوتر لا حد له، هذه المرة الأولى التي يشارك فيها في جريمة بشعة كهذه، لكنه متأكد أن الأمر ضروري لا مفر منه، لا يدري من أين أتاه هذا اليقين أنه يشهد فعلًا شيطانيًا، لكن عقله كان مصرًا أنه يفعل الصواب. اعتذر لباقي مرضاه بحجة أنه مصاب بوعكة صحية مفاجئة، ثم اتجه إلى منزله.

عادت أنغام لمنزلها وهي تشعر أن ليست بخير، دقات قلبها راحت تتسارع وبدأت بطنها في التقلص. هل هذا هو تأثير ذلك المصل الذي حقنها به الطبيب؟ ربما. رقدت على الفراش وقررت النوم قليلًا، لكن بعد نصف ساعة استيقظت على ألم حاد يمزق أحشاءها، شعرت وكأن أحدهم يمزق بطنها بسكين حاد. المخيف أنها كانت في غرفتها راقدة على فراشها في الظلام، ورغم كل الألم الذي تشعر به فإن صرخة واحدة لم تخرج من فمها، والمرعب أنها أصيبت بشلل تام فلم تعد قادرة على التحرك ولو لخطوة واحدة. كان عليها أن تحتمل كل هذا الألم والعذاب بمفردها وفي صمت. وفي عقلها برز السؤال المخيف، هل يجهض حملها؟

راحت تبكي بصمت والألم يقتلها، ثم رأت ثوبها ينحسر لوحده عن بطنها وكأن يدا خفية ترفعه، ظهرت بطنها المرتفعة، وفي الظلام كان هناك ضوء شبحي قرمزي ينبعث منها. والجنين في بطنها يتلوّى في عنف وأثر حركته الثائرة ظاهر بشدة على بطنها، راحت تراقب ما يدور في عجز لنحو الدقائق العشر، وفجأة اختفى الضوء فساد الظلام وسكن الجنين في بطنها تمامًا. وذهب معه كل الألم، وفي اللحظة التالية شعرت بالدماء تنسال من أسفلها، فصرخت.

هذه المرة استجاب لها فمها ففارقته الصرخة.

وفي منزله شعر الدكتور مدحت بإعياء حقيقي كبير، ذهب لحجرته وشغّل التلفاز ورقد فوق الفراش وراح يتابع بلا

حماس أحدَ الأفلام الأجنبية الجديدة التي يهوى مشاهدتها، لم يكن عقله حاضرًا، كان يفكر طوال الوقت في جريمته، كانت نحو الساعتين قد انقضتا منذ حقن أنغام بالحقنة المميتة، لا بُدّ أن الأمر قد انتهى الآن. أظلمت حجرته فجأة، لكن الشاشة التليفزيونية ظلت تعمل.

اختفى الفيلم الذي يتابعه على الشاشة وظهرت بدلًا منه أنغام وهي راقدة في الظلام في حجرتها تتلوى من الألم وقد انحسر ثوبها عن بطنها وراح ضوء أحمر ينبعث منها، جف حلق الدكتور مدحت وهو يراقب هذا الجنون الشيطاني، هل هناك كاميرات خفية تنقل له بدقة مذهلة ما يدور في حجرة أنغام، كان يشعر بفزع لا حدّ له، وفي وقت آخر كان ليهرع ويهرب من شقته كلها، لكن دافعًا خفيًا دفعه لمتابعة كل ما يدور أمامه رغم غرابته، مضت عشر دقائق ثم اختفى الضوء الأحمر وساد الظلام في حجرة أنغام، رغم هذا شاهد الظل الغريب المظلم الذي خرج من أسفل أنغام ورح يزحف على الفراش مبتعدًا عنها متجهًا نحو الكاميرا، اقترب منها أكثر وأكثر فبدأت ملامحه في الظهور، كان يحمل رأسَ قطّ أسود. اقترب أكثر وأكثر وفي اللحظة التالية برز رأسه من شاشة التلفزيون وقد بدأ في الخروج منها، هذه المرة صرخ مدحت في فزع واستعد للهرب، لكنّ يَدَ طفل صغير أمسكته من ذراعه بقوة شيطانية رهيبة وقيدته في مكانه فشهق وهو يلتفت نحو من يقيده في الظلام، كان طفلًا بالفعل، طفلًا ميتًا فارقت الروح جسده منذ زمن بعيد وبدأت أعضاؤه في

التحلل، وكان آخر ما سمعه هو صوت الطفل غير الآدمي:

- كلا.

رأى الطبيب المزيد من القطط السوداء وهي تخرج من شاشة التلفزيون.

بعد بضعة أيام اكتشفوا جثة الطبيب المشهور، وكان السؤال الذي لم يصل أحد لإجابته، كيف تمزق تمامًا إلى أشلاء وهو في فراشه دون أن تسيل من جسده نقطة دماء واحدة.

وكغيره من آلاف الأمور الغامضة التي تحدث في العالم طوال الوقت، لم يعرف أحد الإجابة أبدًا.

7

تتأملها حماتها بدهشة وإشفاق وقد اتسعت عيناها، هنا تتنهد أنغام، وتشيح بوجهها وتهمس وهي تتوقع ما سوف تحدّثها به:

- يا إلهي ليس ثانية!

لكن حماتها لا تخيب تخمينها وتقول:

- ألا تأكلين يا أنغام. لقد صرت كالقلم. انظري إلى وجهك وجسدك في المرآة. هل يجوز أن يكون هذا جسد امرأة تحمل جنينًا. هذا ليس بجيد لك أو للطفل.

تجيب أنغام في يأس مختلط بالسأم من تلك الأسئلة التي لا تعرف إجابتها وتهبط على أذنيها طوال الوقت:

- لكنني آكل يا ماما. آكل بشراهة الآن، حتى أتعجب أين يذهب كل هذا الطعام. وبالرغم من هذا أفقد وزني باضطراد. لا أفهم كيف يحدث هذا مع كل هذا الطعام الذي أتناوله!

- ربما كان هناك خطب ما، ولكن ماذا أخبرك الطبيب في المرة الأخيرة؟

استعادت ما جرى في المرة الأخيرة؛ نحافتها وهزالها أزعجا طبيبها الجديد الذي ذهبت إليه بعد علمها بوفاة الدكتور مدحت الغامضة. هو الآخر طمأنها على جنينها لكنه أقلقها على حالها. طلب منها إجراء بعض التحاليل. وأظهرت نتائجها أن تعاني من أنيميا حادة. كانت نسبة الهيموجلوبين في دمها

لا تتعدى الرقم (8)؛ رقم مزعج، فأوصى لها الطبيب بحقن الحديد. تعاطت الجرعات كاملة واحتملت تأثيرها المزعج السخيف. دون أن يتبدل شيء. ما زالت نحيفة كما هي وإن انتظمت أنفاسها قليلًا.

وأجابت حماتها في وجوم:

- أوصاني ببعض الفيتامينات، وطمأنني على الجنين.

في المساء راحت تتأمل جسدها العاري في حجرة نومها أمام المرآة. الوجنتان غائرتان. العينان بليدتان بلا بريق. تتحسس بشرتها بأطراف أناملها، لتدرك أنها قد فقدت الكثير من نعومتها وحيويتها. تتأمل نهديها الضامرين وضلوعها البارزة والتي صار بإمكانها إحصاءهم بسهولة. ثم تنتقل لبطنها المستديرة الضخمة. الجزء الوحيد بجسدها الذي زاد ولم ينقص. تتحسسها بحنان للحظة قبل أن تنتقل ببصرها إلى ساقيها وفخذيها. عشرات الشعيرات الزرقاء المنتفخة. دوالي الحمل كما أخبروها وكما طمأنوها إلى اختفائها بعده.

امرأة أخرى تلك التي تراها في المرآة. امرأة أنهكها الحمل وأثقلها. وشعرت ببعض التقلصات في بطنها. لا بدّ أن الطفل يتحرك. اعتادت تلك الحركات منذ شهور. لا بدّ أنه يصحو الآن، أو يبدل من وضعه، أو يتثاءب. تتقلص خلجاتها ببعض الألم وهي تحيط بطنها بكفيها. لكنها تبتسم. وحين تشعر بتلك العلامات التي تتشكل في بطنها أسفل كفها الأيسر ترفع كفها على الفور وتنظر إلى بطنها. علامات ثلاثة أصابع

واضحة تبرز من جدار البطن. كفٌ بثلاثة أصابع. تشعر بالعجب ويزداد خفقان قلبِها. تختفي الأصابع بعد لحظاتٍ، لكنها تظلُّ ترمق بطنها بخوف وحيرة. هل كانت هذه كفُّ الطفل ولو كانت فكيف كانت بمثل هذا الوضوح وأين ذهب جدار الرحم السميك الذي يحيطها.

بعد حين نظرت للمرآة لترى شيئًا أكثر فزعًا. ضوء غريب أحمر ينبعث من بطنها منعكسًا على المرآة. تنقل بصرها بسرعة نحو بطنها فلا تجد شيئًا غريبًا، تنظر إلى المرآة فترى الضوء ثانية. وتنظر لبطنها فلا ترى شيئًا. يتملكها الفزع فترتدي ملابسها على عجالة وتخرج إلى الصالة وتتصل بزوجها.

- أريد أن أرى الطبيب حالًا. أريد أن أطمئن على الطفل.

تظلم الممرضة حجرة الفحص ويفحص الطبيب بطنها بجهاز الموجات الصوتية. تتعلق ببصرها نحوه ويتعلق بصر محسن بالشاشة التي تنقل لهم صورة مبهمة للطفل. يرى الرأس والذراعين والحبل السري الطويل وبُحيرة الماء التي تحيط بالجنين. الطبيب يحبس أنفاسه وهو يتوقف عند شيء طويل يشبه الذيل. إنه بالفعل يشبه الذيل. ينقل بصره للطبيب ليراه يمط شفتيه بحيرة. يلاحظ عيني زوجته المعلقتين بهما كقرون استشعار في انتظار لفتة ما فيلوذ بالصمت وإن شعر بالرعب في أعماقه. ينتهي الطبيب فتتحدث أنغام وتسأله:

- هل هو بخير يا دكتور؟

- إنه أفضل حالًا منك بكثير. إننا في الشهر السابع وقد اكتمل نموه تمامًا. يبدو أنه سيأتي للعالم مبكرًا.

- ألن يكون هذا خطرًا عليه. إحدى زميلاتي أنجبت في الشهر السابع واستدعى الأمر مكوث طفلها في الحضانة لأسبوعين.

ورغم تعلُّق باله بالذيل الطويل إلا أن الطبيب طمأنها قائلًا:

- لا أعتقد أن يحدث هذا مع طفلك. صدقيني يا سيدتي، لقد اكتمل نموه تمامًا. لقد صار مهيًأ للقدوم للعالم في أقرب وقت.

تذكرت أنغام الكف ذات الأصابع الثلاثية التي ترتسم من حين لآخر على بطنها، فقالت في إصرار:

- وماذا عن أصابعه؟ هل يمكنك إحصاؤهم، هل هم خمسة أصابع؟!

نظر لها الطبيب بدهشة. وكذلك فعل محسن، الذي سألها بسرعة:

- لماذا تقولين هذا يا حبيبتي؟

تحركت عيناها بينهما قبل أن تخبرهما بما رأته على بطنها. هنا ابتسم الطبيب وقال وهو يهز رأسه بتفهم:

- لا تقلقي، لديه في كل كف أصابع خمس وليس ثلاثة. ربما توهمتِ ما رأيته. يحدث هذا كثيرًا مع الكثير من الحوامل.

أنت تعانين من الأنيميا، بل أنتِ في مرحلة متقدمة منها في الواقع. هذا يعني عدم تدفق الدم بصورة كافية للمخ الذي سيعاني من حينٍ لآخر من نقص في الغذاء والأكسجين مما قد يسبب بعض الهلاوس البصرية أو السمعية. ولا بُدّ أن هذا ما حدث لك.

وصف الطبيب لها بعد الأقراص وطالبها بزيارته ثانية بعد أسبوع، كان من رأيه أن هناك علامات لولادة مبكرة ولهذا يجب أن يراها كل أسبوع. تحركت مع محسن الذي تعمد أن يترك محموله على مكتب الطبيب، كان القلق ينهشه والذيل الطويل الذي رآه في الأشعة التلفزيونية لا يفارق مخيلته، بالطبع لم يشأ أن يقلق زوجته، وأراد أن يعود إلى الطبيب بمفرده ليسأله عما رآه، وما إن خرج من باب العيادة حتى تحسس جيبه أمام بصر زوجته، ثم هتف بها:

- يبدو أنني نسيت الهاتف عند الطبيب، انتظريني للحظة، سوف أبحث عنه بالداخل.

عاد للطبيب وسأله على الفور وهو يلتقط المحمول الذي ظلّ على طرف المكتب:

- ما هذا الشيء الطويل الذي كان يبرز من مؤخرة الطفل؟ هل كان هذا ذيلًا؟

نظر إليه الطبيب وتنهد للحظة، ثم أجابه بحيرة:

- أخشى أن أخبرك أن هذا ما يبدو. إنه موجود منذ البداية في الواقع، منذ الشهر الرابع تحديدًا حين رأيتها أول مرة.

كانت هذه هي المرة الأولى التي لاحظت وجوده فيها.

ارتجف محسن ببعض الدهشة وردّد:

- الشهر الرابع؟! ولماذا لم تخبرنا بهذا كل هذا الوقت؟ أعتقد أن هذا من حقنا.

أجابه الطبيب في صبر:

- في الواقع لم أشأ أن أقلق زوجتك بأمر كهذا. خاصة أنه يحدث أحيانًا أن نكتشف عيوبًا خِلقية كهذه، في الكثير من الأحيان تختفي مع تقدم الحمل، لكنها في أحيانٍ أخرى قد تستمر ويخرج بها الطفل من رحم أمه.

شعر محسن بالاضطراب وهو يتخيل طفله مولود بذيل طويل، فقال في رجاء:

- وماذا عن هذا الذيل، هل سيولد به طفلي؟؟

- أعتقد أن هذا ما سيكون. لكن لا تدع هذا يقلقك كثيرًا، ليست هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها أمرًا مماثلا. إنه عيب ثانوي ويمكن إزالته بعملية جراحية بسيطة لا خطر فيها.

يشعر بالوجوم ويعود لزوجته شاردًا. تلاحظ امتقاع وجهه فتسأله بقلق إن كان الطبيب قد أخبره بأي شيء، لكنه ينفي الأمر على الفور . يجتر عقله كل ما حدث له. تتزلزل أعماقه بخوف مبهم، ويشعر أن الطفل الذي سيرزق به ليس نهاية الأمر، وأن هناك ما يخبئه القدر له. كان كل ما يحدث أمور

خارقة شيطانية. أمور بعثتها أضحية بشرية حقيقية أقدم على فعلها أملًا في هذا الطفل. لكن زوجته لم تعد على ما يرام. وكلما نظر إليها ولاحظ شحوبَها وهزالها ازداد يقينًا أن الأمور ليست كما ينبغي أن تكون. والآن هناك هذا الذيل. الذيل الحيواني الطويل الذي رآه!

هل لهذا مغزى ما؟

تمنى أن تلد زوجته ليحصل على الإجابات التي يصبو لها.

8

بعد أيام وجد الرسالة في بريده الإلكتروني. نفس الرسالة المختصرة القديمة والتي لم يرّها منذ شهور سبعٍ. وتحديدًا منذ ترك مرزوق في المقبرة القديمة. لم تكن تحوي إلا الرابط فتصلب أمامه للحظات مترددًا وهو يتساءل لماذا عاود هؤلاء الغامضون مراسلته ثانية؟ هل سيطالبونه بأمور جديدة. ارتجف للحظة وشعر بحلقه وقد جف. في النهاية تغلّب فضوله على توتره فضغط على الرابط.

ظهرت صفحة الفيس بوك الغامضة بعد لحظة. لدهشته كانت صورة زوجته تتوسطها وهي تنظر بحنان وشوق إلى رضيع تحمله. تراجع على مقعده في ذهول قبل أن يضغط على المربع الجانبي ليدخل حجرة المحادثة وهو يشعر بمشاعر متناقضة من الخوف والغضب. ليس من حقهم أبدًا أن ينزلوا صورة ما لزوجته هكذا على موقعهم. وشعر كذلك بالحيرة كيف ومتى حصلوا على صورة كهذه؟ ملابس زوجته لا يعرفها. هل صنعوا لها صورًا بواسطة الفوتوشوب أو الذكاء الاصطناعي؟

بدا احتمالًا مقبولًا.

وجد الرسالة الأولى في انتظاره:

- هل أعجبتك الصورة. إنها جميلة بالفعل. إن الأمومة أكثر ما يسعد المرأة في كل العصور.

ظلّ الغضب يعصف به وهو يسأل:

- من أين جئتم بهذه الصورة. إنها ليست حقيقية. أليس كذلك؟

جاءته الإجابة كاملة في اللحظة التالية مرة واحدة وكأن من يحدثه قد أعد الإجابة مسبقًا:

- بل هي حقيقية تمامًا. أنت لم تتعرفها حتمًا لأنها صورة من المستقبل. صورة جميلة شعرنا أنها قد تسعدك رؤيتها.

- مستقبل؟ هل تمزح يا هذا؟

- المزاح هو آخر ما نفكر فيه يا محسن. إننا لا نمزح أبدًا. لكننا نعرف كيف نهتم بعميلنا وكيف نحاول إسعاده، ولهذا وضعنا تلك الصورة كي نهنئك بالطفل. سوف يرى طفلك هذا العالم فجر هذه الليلة.

ارتجف محسن من الإثارة. سيولد ابنه اليوم. سيصير أبًا هذه الليلة. كان قد لاحظ أن الكوابيس والأحداث الغامضة قد كفت تمامًا فور انتهاء الشهر الثالث من حمل زوجته وتحديدًا حين أصيبت زوجته بنزيف حاد في نفس الليلة التي مات فيها الدكتور مدحت، طبيبها القديم. ورغم هذا ظلت هواجسه تؤرقه طوال الوقت وهو يتساءل هل ستلد زوجته بصورة طبيعية، وكيف سيكون طفلهما؟

جاهد دموعه كي لا تنهمر، وتذكّر ذيل الطفل الذي رآه عند الطبيب وفكّر: مادام هذا الغامض يعرف كل شيء هكذا فلماذا

لا يسأله عنه؟ هنا كتب:

- يعتقد الطبيب أن الطفل سيُولَد بذيل في مؤخرته. هل تعلم شيئًا عن هذا؟

- لن يكون هناك ذيل أو غيره. سيولد الطفل في أحسن صورة تتمناها. إنه هديتنا من أجلك.

خفق قلبه في سعادة، لكنه قال وكأنما يرغب في التأكد:

- لكني رأيت الذيل بعيني.

- أخبرتك أنه سيولد طبيعيًا. فقط عليك أن تعتني به جيدًا. حذار أن يصاب بأي سوء. لن نسامحك حينها أبدًا.

شعر بالخوف وقد لمس في تلك الكلمات الوعيدَ. شعر بالخوف حتى إنه عاد ليسأل سؤاله القديم:

- ومَن أنتم؟ لم تخبرني أبدًا بإجابة سؤالي هذا.

- ستعلم كلَّ شيءٍ في حينه. اطرح مخاوفك وقلقك جانبًا وحاول أن تستمع كثيرًا باللحظات القادمة المثيرة. سوف تصير أبًا بعد ساعات قليلة، وهي لحظات تستحق السعادة والفرحة. لا تهتم بشأننا الآن وفكر في طفلك القادم. لن نتركك وسنكون دومًا بجوارك لو احتجت إلينا. سوف تكون هناك رسالة برابط يصلك بنا. لا تستعمله إلا للضرورة القصوى، إنه يعمل لمرة واحدة فقط، حاول ألا تبدِّد هذه المحاولة بلا جدوى.

اختفت الصفحة من أمامه بعدها. وبعد لحظات نبَّهه بريده

الإلكتروني برسالة جديدة. عاد إليه خوفه القديم من هذا الموقع المخيف وذلك الغامض الذي يستتر خلفه. يعلم الآن أن الأمر غير بشري. هناك لمسة شيطانية في الأمر. كل ما يحدث يبرهن له ويؤكد شكوكه تلك. وآخرها تلك الصورة التي جلبوها من مستقبل زوجته. أمر لا يقدر عليه بشري. هل تورّط في صفقة ما مع الشيطان. وابتلع ريقه برعب.

لم يخبر زوجته بما يعلمه أنها ستلد هذه الليلة. فقط ظلّ يقظًا على فراشة وقد جافاه النوم إثارة وترقبًا. تتقلب زوجته وترتسم ابتسامة خفيفة على وجهها وهي نائمة بجواره تتحسس بطنها. هل تحلم زوجته بالطفل؟

هذا محتمل!

كانت تحلم بالفعل. الطفل يمرح بين يديها والرجل العجوز ذو اللحية البيضاء كالقطن يزورها مرة أخرى في أحلامها، ويبشّرها بالطفل. يضحك الطفل فتلتفت إليه بسعادة وتراقبه والرجل يتحدث إليها حديثًا حلوًا لا تدري كنهه. وحين تلتفت إليه ثانية تراه قد تغير. لم تعد لحيته بيضاء كالثلج، ولم تَغد ملامحه عذبة كما اعتادتها. كانت ترى شيئًا آخر. كانت ترى شيطانًا أسودَ بعيون متوهجة وقرنين على جانبي الرأس. شيطانيًا رأت صورته من قبل على أغلفة بعض الكتب القديمة. وبينما شعرت بالفزع انحنى هذا الشيطان نحوها وفتح فمه فانبعث منه أبشع رائحة تنفستها في حياتها وهو يقول:

- هل راق لك الطفل؟

وحين صرخت وأفاقت من حُلمٍ قد صار كابوسًا كانت آلام المخاض الأولى تنبعث من رحمها فامتزجت صرخة الألم بصرخة الفزع وارتجف محسن. احتضنها بسرعة ومسح العرق عن جبهتها وعاودها الألم ثانية فصرخت وهي تهتف به:

- إنني ألِد يا محسن. إنني ألد.

كان يعلم هذا وينتظره. لذا هبّ من مكانه وبدّل ملابسه ووضع عباءة فوقها وهبط بها نحو المستشفى بعد أن هاتف طبيبها. لم تنقطع التقلصات عن بطنها وعاودها الألم على فترات قصيرة. لكن الخوف أيضًا لم يفارقها وصورة ذلك الشيطان المخيف مازالت برأسها بل والرائحة الكريهة التي انبعثت من فمه ما زالت عالقة في أنفها. كل هذا جعل ألمها لا يحتمل فانطلقت صرخاتها بلا قيد.

وفي المستشفى كان الطبيب بانتظارهما. وبعد أقل من ساعة من الانتظار والترقب خارج حجرة الولادة همدت صرخات أنغام وحان وقت الطفل الصغير ليصرخ ويعلن عن نفسه. لم يتمالك محسن نفسه فبكي والشوق يغالبه لرؤيته. وحين خرج الطبيب مبتسمًا شعر بالراحة. وبادره الطبيب قائلًا بمرح:

- إنه طفل طبيعي تمامًا يا رجل. إنه يوم سعدك بحق. لا ذيلَ هناك ولا أي شيء آخر. يبدو أننا كنا حمقى أو واهمين

حين رأينا ذلك الذيل.

يحتضنه محسن ولا يبالي باليد والملابس الغارقة في الدماء. يسأل الطبيب في سعادة جمة إن كان ممكنًا رؤية الطفل أو أمه، ويخبره الطبيب ألا يتعجل، قبل أن يعود الطبيب إلى حجرة الولادة ثانية. يدور محسن حول نفسه بترقب ويتذكر محادثة الليلة السابقة مع الغامض، لقد صدقَ مرة أخرى فيما أخبره به وها هو الطفل قد وُلدَ سليمًا. فقط يريد أن يرى هذا بأمّ عينه كي يطمئن.

وحين تخرج زوجته على فراشها المتحرك من حجرة الولادة، وعلى وجهها الشاحب المرهق ابتسامة سعادة حقيقية وارتياح ينحني على جبينها ويقبّلها وهو يهمس في أذنها:

- مبروك يا حبيبي، لقد جاء طفلنا أخيرًا.

تتنهد بارتياح دون أن تجيبه ويتحرك الفراش المتحرك الذي تدفعه ممرضتان ويفتش بعينيه عن الطفل. لم يكن مع الأم وبعد لحظات تخرج به إحدى الممرضات من الحجرة. يهرع نحوه وينبش اللفافة التي تحويه بأصابع مرتجفة، ويظهر الوجه. كان جميلًا في لونه الخمري المميز. انحنى نحوه وقبّله والممرضة ترمقه بصبرٍ. وحين رفع رأسه فتح الطفل عينيه؛ عينين واسعتين شديدتي السواد. فتح الطفل عينيه ثم بدَث على فمه ما يشبه ابتسامة عذبة، كأنما يبتسم من أجل أبيه، حتى إن الممرضة رفعت حاجبها الرفيع بدهشة

حقيقية وهي ترمق الرضيع وهتفت:

- رباه. إنه يبتسم لك. يا له من طفل مميز! انظر إلى غمازتيه، كم هما فاتنان!

بالفعل كان مميزًا، وأدرك هنا محسن لماذا تراجع في تلك اللحظة بفزع لا حدود له، وهو يرمق الرضيع المبتسم ذا الغمازتين الساحرتين والعينين النجلاوين. ما زال يتذكر تلك الخلجات التي طالما أعجبته في طفل أحبه في السابق.

طفل يدعى مرزوق.

لقد كان رضيعه يحمل في ملامحه تلك الملامح المميزة لمرزوق. وعقد الذهول لسانه فلم يتكلم.

9

مضت الأيام بسرعة، ومر شهر كامل على ميلاد أدهم كما أسموه. تبدّد التوتر بين زوجته وأمه وإخوته، وعادت أمه لتحيط زوجته باهتمامها ورعايتها. فكل ما كان يعنيها أن يرزق ابنها بالولد وهاهو قد صار أبًا.

ينمو الرضيع باضطراد وصحة لا شكّ فيهما. ينتفخ الوجه الصغير وتزداد العينان اتساعًا ولمعانًا ويزداد تفاعله مع كل من حوله. صار قادرًا على تحريك رأسه من ناحية لأخرى وأصبح قادرًا على تتبع الأصوات من حوله وتمييز الأضواء.

وذهب به لطبيب الأطفال لرؤيته، ولم يكن هذا لمرض ألمّ به بل كان لنصيحة إخوته وبعض زملائه الذين أشاروا عليه بأهمية المتابعة الدورية عند الطبيب للطفل في الشهور الأولى من عمره، لمراقبة مقدار نموه الجسدي والعقلي. هنا أدهشه عجبُ الطبيب من ابنه الذي راح يقبّله بين كفيه متصفحًا. لم يصدق أبدًا أن ابنه في الشهر الأول من عمره. وزنُه كان قد تجاوز الخمسة كيلو جرامات واستجابته للمؤثرات الخارجية من حوله والتي يبديها بتحريك عينيه أو رأسه، كانت لطفل في الشهر الرابع من عمره وليس الأول أبدًا.

لم يجد الطبيب ما يقوله غير ترديد تلك الجملة الغريبة:

- هذا طفل مختلف بلا شك. إنه يسبق نموه بشهور، ولن أتعجب لو مشى في الشهر السادس من عمره، أو تكلم قبل أن

يتم العام من عمره. ليس هذا مألوفًا لكنه يحدث الآن. أنتم تملكون طفلًا يستطيع أن يدخل موسوعة جينيس لو وافق تخميني.

كان الطبيب مصيبًا في تخمينه بصورة كبيرة في الواقع، فالطفل بالفعل قد كان قادرًا على السير بصورة متزنة قبل الشهر السادس من عمره وتكلم في الشهر العاشر.

وأزعجت الكلمات محسن أشد الإزعاج، لم يكن هذا ما يتمنى أن يسمعه. ربما لو أتى الطفل إلى هذا العالم بصورة طبيعية لا دخل لموقع غامض على الإنترنت فيها ولا أضحية بشرية تُقدّم من أجله، لأسعدته تلك الملاحظات. لكن انتظاره لخدعة ما في الطفل كان إحساسًا قويًا اكتسح عقله وتفكيره. وكل ما يراه من أشياء غريبة تحيط بابنه كان يئمي إحساسه هذا ويغذيه.

لكن وَقْع كلمات الطبيب على زوجته كان غريبًا. لم تعقب على ما قاله الطبيب ولا فكرت في سؤاله إن كان ما يخبرهم به عن الطفل أمرًا رائعًا يستحق الفرحة والفخر، أم أنه غير ذلك. فقط اكتفت بمتابعته بابتسامة عجيبة لم يألفها محسن على وجهها. ابتسامة تحمل الكثير من المجهول الذي يعتمل في نفسها. لم يسألها عما بداخلها واكتفى بتذكُّر علامات التبدل التي ألمت بزوجته بعد الولادة.

هل كانت سعيدة. كانت الإجابة عسيرةً بحقٍّ وهو لا يدري إن كان اهتمامها بالطفل وضحكاتها التي تظهرها أمام الجميع

تعني السعادة. لكن لو كان هذا صحيحًا فلماذا يراها دائمًا في شرود عجيب قد لا تنتبه فيه لحديثه إليها، ولماذا صارت تنتفض فجأة لو ندت بجوارها أدنى حركة مفاجئة، أو صوت يأتي بغتة.

لم تكن هكذا أبدًا قبل ذلك. كان ذلك أمرًا قد جدّ عليها.

تنتابها الكثير من الكوابيس كما تنتابه، لم يكن هذا أمرًا من الممكن أن تخفيه عنه وهي تصحو كل يوم تقريبًا فزعة من النوم صارخة أحيانًا. لكنها أبدًا لم تخبره بما تراه في أحلامها ولماذا تفزعها أحلامها. لم تفارقه الكوابيس أبدًا هو الآخر، لكن كوابيسه كانت تحمل في جوفها جرمًا قد اقترفه وفسر وجودها ومهاجمتها لنومه، لكن ماذا عن أنغام التي لم تفعل شيئًا. لماذا تهاجمها الكوابيس هي الأخرى؟ وما الذي تراه ولا تحدثه به. ليته يعلم.

ترمقه في بعض الأحيان بنظرات غريبة. نظرات تحمل الكثير من الاتهام والعتاب. نظرات تعزيه وتوتره. كان حينها يتحاشى نظراتها وهو يفكر بجنون هل أدركت بوسيلة ما فعله كي ينجبا؟ تمنى لو كان قادرًا على سؤالها عن هذا. لكنه لم يكن بقادر على السؤال وكان يكتفي بابتلاع حيرته والاحتفاظ بها في جوفه.

بدت مذعورة رغم ما تبديه أمام الجميع من فرحة بالطفل وحفاوة بقدومه. تجاهد كي لا يدرك أحد ما تكنه في أعماقها من مخاوف وأوهام.

الطفل يحيّرها.

الطفل يوتّرها.

الطفل يثير في أعماقها خوفًا بدائيًا من مجهول لا تدرك كنهه.

لم يكن أبدًا كالأطفال الآخرين. نعم إنه مختلف تمامًا. ومنذ أيامه الأول أدركت هذا. لم يكن يبكي كالأطفال أبدًا. كان دومًا صامتًا. كان دومًا هادئًا. يكتفي بالنظر إلى كل شيء حوله بعينين واسعتين سوداوين تحويان من الغموض قدرَ ما يحويه قاع المحيط نفسه من أسرار.

تشعر أن عينيه واعيتين. عينين تدركان كلّ ما حولها وهي تنقب في جدران العالم لتكتشفه من جديد. «*خاطر سخيف*». هكذا تحدّث نفسها دومًا وهي تحاول طرد تلك الفكرة الحمقاء من رأسها.

«إنه طفل لم يتعد الشهر من عمره، وبالطبع لن يدرك ماهية العالم وما يحويه من حقائق وغرائب».

لكن عينيه الواعيتين تحطمان سلامة منطقها في كل مرة.

جرّبت مرة فكرة مجنونة طرأت على عقلها. أشعلت عودَ ثقابٍ وقرّبته من الطفل. في البداية رمق الزهرة المتوهجة بهدوء. لكنها وما إن قربت العود المشتعل من كفه حتى تقلصت خلجاته وارتعشت كفُّه. وما إن دنت من أنامله البضة أكثر حتى انطلق في البكاء. بكاء يحمل فزعًا لا شكّ فيه.

أطفأت عود الثقاب على الفور ورمقته بحيرة. هل أدرك ما تنوي فعله فبكى من أجل هذا اعتراضًا. هل أدرك أن ما تحمله بين أناملها نيرانًا تحرق وتؤلم ولهذا بكى خوفًا. من المستحيل أن يدرك طفل في الشهر الأول من عمره ما تفعله النار. ما زالت تتذكر قصة سيدنا موسى مع الفرعون، حين وضع أمامه جمرة نار متوهجة وبلحًا أحمر، وانتظر أيهما يلتقط بيده. التقط سيدنا موسى الجمرة ووضعها في فمه فحرقت لسانه. كان سيدنا موسى حينها طفلًا ولم يكن رضيعًا، ومع هذا لم يدرك كنهه النار فالتقطها.

الغريب أنها في اليوم نفسه لسعتها النيران خلال طهو الطعام. لسعتها في أناملها فاحمر جلدها والتهب.

لم يكن هذا كل شيء. كان الطفل يرضع منها بنهم غريب. يرضع طوال الوقت دون أن يشبع. يمتص رحيق روحها وصحتها في كل مرة يلتقم فيه ثديها. تشعر بالهزال. تشعر بالوهن والضعف. تحس بالسقم. هزل جسدها وازدادت نحافة وضعفًا لكنها لم تمنع نفسها عنه.

لا تدري لماذا لم تقدر على فطامه وإرضاعه حليبًا صناعيًا،كما يفعل البعض. نصحتها أمها بهذا ونصحها محسن أن تفعل. وأشار عليها طبيب الأطفال أن تجرب، لكنها لم تقدم على تلك الفكرة. ما الذي يقيدها عن فعل هذا؟ حقًا لا تدري.

يقولون إن هناك رابطًا ما يربط بين الطفل وأمه، رابطًا يُشعر الأم بجوع طفلها أو حاجته إليها، أو حتى صحوه

وفزعه. يقولون إن هذا الرابط الخفي هو ما يجعل الأم تصحو من نومها فجأة وقد أو شك الطفل على السقوط من مهده مثلًا، هو ما يدفعها للذهاب إليه وقد أوشك خطر ما أن يؤذيه، رابط خفي يقلق الأم ويدفعها للاطمئنان على طفلها.

لكن هذا الدافع لن يكون أبدًا هو الألم!

نعم الألم. ففي كل مرة يحتاجها الطفل فيه يجتاحها ألم عنيف. لو جاع واحتاج للرضاعة فهناك تلك القبضة الرهيبة التي تكتنف صدرها كأنما تعتصر قلبها نفسه. حدث هذا لها غير مرة، وكان آخرها يوم أن تركته في مهده نائمًا منذ بضعة أيام وهبطت لمحل البقالة أسفل البيت لتشتري بعض الأغراض. هنا وبينما تنتظر أن يأتيها البقال بما طلبته أتت القبضة القاسية الباردة. أتت بلا مقدمات حتى إن العرق البارد غمر جبهتها وبدأت في اللهاث. لاحظ البقال هذا فقال بتوتر:

- هل أنتِ بخير يا سيدتي.

لم تقوَ على الرد، وكل ما فكرت فيه حينها هو الطفل. عادت للعمارة بخطوات مترنحة حاولت أن تجعلها سريعة والألم لا يكف عن اعتصار صدرها، وحين وصلت لحجرة الطفل كان يبكي. جلست بجواره وهي ما زالت تلهث وألقمته ثديها. وبينما راح يرضع بنهم راح الألم هو الآخر يخفت رويدًا رويدًا. وحين شبع الطفل كان الألم قد تلاشى تمامًا.

راحت حينها تتأمل الطفل بحيرة وخوف وراح يرمقها بعينين لا ترمشان. عيون ساخرة بلا شك وشبح ابتسامة

هازئة تلوح على جانبي فمه.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يكتنفها فيها ألمٌ مثل هذا. بل تكرر كثيرًا. أحيانًا تكون في المطبخ فيفاجئها، وأحيانًا تكون نائمة، وأحيانًا تكون أمام التلفزيون، وفي كل مرة يختفي الألم تمامًا ما إن يشبع الطفل.

سألت أخواتها، زميلاتها، جاراتها، هل يحدث لأيهن شيء من هذا، وفي كل مرة لا ترى منهن غير العجب والنصيحة بزيارة الطبيب لترى إن كان بقلبها خطب ما.

وبالفعل زارت طبيبًا مختصًا بأمراض القلب، وبعد أن قام بفحصها أخبرها أن قلبها بخير لا غبار عليه. إذًا هو الطفل، ولا تفسير آخر لما يحدث لها غير هذا.

هل يستعبدها ذلك الطفل كي يعيش. هل يسيطر عليها بهذا الألم.

تبكي حين تفكر بهذا المنطق وتفكر إن كانت بسبيلها للجنون.

وفي الشهر الرابع من عمر الطفل جاءت أختها منال لزيارتها، واصطحبت معها طفلها نادر. كان في الرابعة من عمره، وكان كالنحلة لا يستقر في مكان واحد قط. شقي للغاية أعيت شقاوته أمه. ظلت تتحدث مع أختها ولم ينتبها لنادر الذي كف عن إصدار ضجيجه فجأة.

كان نادر في هذا الوقت أمام الرضيع الراقد في فراشة

والذي ظل يرمقه بعينيه الواسعتين بلا مبالاة. حاول نادر أن يهز الطفل أو يجذبه ليلعب به فلم يقدر. حاول أن يعبث بأنامل الصغير فأبعد الرضيع كفَّه من أمامه وضمه نحو صدره. لا بُدّ أن نادر شعر بالغيظ في تلك اللحظة وقرر الانتقام من الرضيع الذي يرفض أن يصير لعبته. ودون مقدمات هوى بأسنانه الحادة على ذراع الطفل وعضه. صرخ الطفل واجتاح الألم صدر أنغام وضحك نادر بشماتة.

هرعت الأختان نحو الرضيع وضمت أنغام رضيعها لصدرها وهي تهدئه، بينما أمسكت منال بأذن ابنها بين إصبعيها واعتصرتها وهي تصرخ فيه:

- ما الذي فعلته أيها الشيطان بالصغير. ألن تصير طفلًا هادئًا أبدًا؟ لقد سئمت هذا.

رأت أنغام آثار العضة الصغيرة التي أدمت ذراع رضيعها الأيمن في ضيق، فغمغمت وقد خفت الألم عن صدرها:

- معذرة يا طفلي، أعلم أن هذا قد آلمك لكن أعدك ألا أترك ثانية بمفردك ليحدث هذا.

انصرفت بعدها منال بإحراج وخجل. وتناست أنغام الأمر، وفي الليل كلمتها منال. كانت منهارة، وراحت تبكي وهي تخبرها بما حدث لابنها. لقد صرخ فجأة أثناء نومه فذهبت إليه. كان محمومًا يرتجف بشدة ولا يكف عن القيء. حملته وأبوه لزيارة طبيب ما وهناك أشار الطبيب لآثار عضة على ساعد الطفل دامية وقد نهشت جلده ولحمه، وأخبرهم أن

هذه العضة قد سممت الصغير. الغريب أن العضة في نفس المكان الذي عضّ فيه نادر أدهم. والأكثر غرابة أن نادر وما إن برأ قليلًا من آثار الحمى ظلّ يردّد بهلع:

- العو.. العو..

وحين أنهت منال اتصالها وجدت أنغام نفسها تذهب لحجرة صغيرها لتطمئن عليه. كان يقظًا يرمقها بعينيه الواسعتين اللتين تبرقان في الظلام. وانتبهت لذراعه، كانت سليمة تمامًا وقد اختفت تمامًا آثار العضة التي أدمتها بالنهار.

لكن ما أخافها ما حدث منذ أيام؛ حين هبطت بصغيرها بصحبة زوجها محسن. هنا رأوا زوجة البواب التي لم تفارق الملابس السوداء حداد على طفلها الذي فقدَته. اقتربت منهم ومدّت يدها نحو الطفل لتراه وتقبّله. دفعته أنغام نحوها، لكن المرأة وما إن رأت وجه الطفل الذي ابتسم لها وعيناه السوداوان تلتهمان وجهها حتى ترنحت في مكانها، وكادت أن تسقط. أسرعت لأنغام بالتقاط الرضيع من بين كفيها قبل أن يسقط بينما ساعد مجدي المرأة كي لا تسقط هي الأخرى.

ما أدهشهم هو ما قالته المرأة وقد بدأت في البكاء:

- إنه مرزوق. نعم إنه يشبه مرزوق تمامًا. لقد كان هكذا تمامًا حين كان رضيعًا. كان يشبهه تمامًا.

لماذا امتقع وجه محسن فجأة؟ ولماذا جذبها من ذراعها بعنف وهو يهتف بصوت مخنوق:

- دعينا نذهب من هنا. إنها بخير ونحن قد تأخرنا.

المشكلة أن ما حدث أيقظ في نفسها مخاوفها الدفينة التي تخفيها عن العالم كله. أيقظ كوابيسها التي تهاجمها كلَّ ليلة وتقض مضجعها.

نعم إنها الكوابيس التي لا ترحم. الكوابيس التي لا تعلم تفسيرًا لها ولا لماذا تهاجمها هكذا. وفي كل ليلة هناك كابوس جديد.

ترى مرزوق كثيرًا. دومًا هو هناك بين تلك الكوابيس. مرة يطاردها ليختطف ابنها منها ومرة أخرى تراه يمرح مع طفلها دون أن تقدر على إبعاده أو منعه من الاقتراب من طفلها. مرة كان مع أدهم يلعبان. لم يكن أدهم في الحلم ذلك الرضيع. بل كان يسير وقد تجاوز عامه الأول بلا شك. لا تتذكر هل كانت اللعبة هي الإستغماية أم تكون لعبة أخرى. لكنها كانت خائفة حتى الموت على ابنها ومع عجزها راحت ترجو مرزوق في الحلم:

- أرجوك. لا تؤذه، إنه لم يفعل شيئًا. إنه مجرد طفل بريء لا ذنب له.

هنا التفت نحوها مرزوق وانفرجت شفتاه عن أسنان كالأنياب وقال بصوت مخيف:

- إنه أنا. إننا نفس الشخص. ألا تلحظين كم نشبه بعضنا البعض.

تنقل بصرها بينهما وتلاحظ الشبه الكبير. الشبه الذي يقارب التطابق. هل تتوهم ما تراه أم أنهما بالفعل صارا كالتوأم. وحين يمسك مرزوق بيد الطفل ويبتلعهما ظلام رهيب تبدأ في الصراخ لتستيقظ لاهثة مذعورة.

لكن أكثر الكوابيس فزعًا كانت تأتي من ابنها. كانت ما تراه من أدهم في أحلامها. لم يكن حينها طفلها الوديع الضعيف. بل كان يتحول لمخلوق آخر. مخلوق تملك عيناه الواسعتان ظلامَ الفضاء السرمدي كله. طفل ترتسم على خلجاته الصغيرة قسوة الجلادين والقتلة. كان حينًا يطاردها وقد استطالت أنامله وتحولت لممصات مخيفة، وحينًا آخر كان ينبعث من أحشائها. كانت تشعر به في جوفها. تشعر بأحشائها التي تتمزق. بأوعيتها الدموية التي تتفجر. تتمدد بطنها حتى تصير كالبالون. يختنق الهواء في حلقها وقد أدركت أنها النهاية. ثم ينفجر بطنها ليخرج أدهم منها. يحبو على صدرها وجسده كله ملوث بالدماء وفي فمه قطعة من أمعائها ما زال يلوكها بين أسنان كأنياب الضواري. يبتسم في وجهها وتتسع عيناه وهو يهتف بها:

- لقد اكتفيت منكِ يا أمي. لقد شبعت. لكني ما زلت أتوق إلى التهام عنقك. هل يمكنني أن أفعل؟

تشعر بالموت وتحس بأسنانه وهي تحيط بعنقها وهي عاجزة عن فعل أي شيء. وحين يبدأ الألم تفلت الصرخة من فمها لتفيق من الكابوس.

تجلس على الفراش. يحيطها محسن بذراعيه ويضمها نحو صدره وهي تنتحب. يهمس في أذنها مطمئنًا:

- لا تخشي شيئًا يا حبيبتي. إنه مجرد كابوس. إنني بجوارك وسأحميك بعمري لو تطلب الأمر. خذي نفسًا عميقًا واكتميه بصدرك. هل تريدين بعض الماء؟

لكنّ أيًا من كلماته لم يطمئنها. إنها تشعر بالهلع حتى الموت وبعد حين تغمغم بخوف:

- إنني أخشى الطفل يا محسن. إنني أخشى أدهم ابني. إنني أخافه حتى الموت.

الباب الثالث: قطط سوداء

1

أعدت أنغام الشاي لها ولمحسن، ثم جلست بجواره أمام التليفزيون. إنه مساء الجمعة، العاشرة والنصف تقريبًا. موعد برنامج (البرنامج) الذي لا تفوت هي أو زوجها أي من حلقاته. الطفل نائم الآن في فراشه بحجرته وما زالت الفقرة الإعلانية الطويلة مستمرة، وزوجها يتبادل معها حديثًا حول توقعاته عن حلقة اليوم ومن سوف يتناوله باسم يوسف بالسخرية هذه المرة. تبتسم بوهن وترتشف من كوبها بعض الشاي وتغمغم في هدوء:

- إن باسم يوسف محظوظ في عمله، لن يعدم أبدًا من يتهكم عليه وسط الصخب والجنون الذي نعيشه الآن بعد الثورة. يبدو أن الثورة كما يقولون قد أخرجت قبحًا وظلامًا نجح الكثيرون في إخفائه طوال الوقت.

تبدأ المقدمة الموسيقية المميزة للبرنامج ويقول محسن مؤيدًا:

- هذا ما تصنعه الحرية في بدايتها. إنها كالغربال، تفرز وتنتقي الأفراد. سيطول هذا الأمر ولا أتوقع أن ينتهي هذا الجنون الذي أصاب الجميع في القريب العاجل. إنها الثورة يا عزيزتي حيث الأطول نفسًا هو الفائز الحقيقي.

ترتشف بعد الشاي وهي تجلس إلى جواره ملتصقة به، وتقول:

- هل تظن يا محسن أن الثورة سوف تنتصر انتصارًا حقيقيًا في النهاية؟

يبتسم زوجها ويضمها برفق نحو صدره قائلًا:

- مَن يدري يا حبيبتي، مَن يدري؟

يشتركان في كونهما قد أيّدا الثورة منذ البداية بكل حماس وأمل. هبطا سويًا لميدان التحرير بعض المرات. تجرعا مرارات الهزيمة والخذلان التي لاقاها الثوار في مشوار الثورة الطويل. خيانة رفاق الثورة من الأحزاب الإسلامية والإخوان وبحثهم الدائم عن مصالحهم وأجنداتهم الخاصة، ومذابح الثوار. أيّدا محمد مرسي كي لا يأتي شفيق كعودة سافرة للفلول كما يُطلَق عليهم. لكن الإحباط من أدائه والانقسام الذي حدث في المجتمع بعد حكمه دفعهما لانتظار حديث آخر يلوح بالأفق. هل تكون هناك ثورة أخرى. يؤمن محسن أن هذا ما سوف يحدث، وترى أنغام أن الشعب قد سئم. كانت ترى أن هناك ثورة وقد انتهت النهاية الحزينة التي لم يتوقعها أحد.

يضحكان مع تعليقات باسم يوسف، وتزداد الضحكات مع الفقرة التي يؤديها مساعديه وخاصة ذلك الشخص البدين الذي تنسى اسمه كل مرة. ومع الصخب تشعر أنغام فجأة أن شيئًا ما يدور من خلفها. تلتفت بحذر للخلف هناك الرواق القصير الذي يفصل بين حجرة الطفل وحجرتيهما. ومن خلف الباب الموارب لحجرة الطفل، والذي تتركه هكذا لتشعر

بصوت الطفل لو استيقظ فجأة، ترى الضوء الأحمر المتوهج. يتدلى فكها السفلي في بلاهة وعدم فهم وهي تتذكر أن الحجرة لا تحوي لمبات حمراء أبدًا. وبعد لحظات من الحيرة تهمس في زوجها دون أن ترفع بصرها عن الحجرة:

- محسن. هل ترى هذا؟ هناك ضوء أحمر يتبعث من حجرة الطفل.

كان يضحك حينها، وربما اعتقد أنها تحدّثه عما يراه على الشاشة فقال دون أن يلتفت إليها:

- أراه بالفعل يا حبيبتي. إنهم رائعون فعلًا. لا أدري من أين أتى باسم يوسف بمساعديه هؤلاء.

لكنها تهتف بصوت أقوى يحمل انفعالًا لا حدود له:

- انظر إلى حجرة الطفل يا محسن. أخبرني لماذا تتوهج هكذا؟

ينتبه لما تعنيه فيلتفت على الفور نحو الحجرة، ما زال الضوء الأحمر ينبعث منها ويتسرب نحو الرواق المظلم فيدمي جدرانه. تبادل معها نظرة قلقة قبل أن يهب بسرعة نحو حجرة الطفل.

انحسر الضوء على الفور فورَ أن أوشك على بلوغ بابها، كأنما شعر الضوء به فلاذَ بالفرار قبل أن يصل إليه. وحين دخلها كان الصغير الذي بلغ الشهور الخمس من عمره الآن يجلس في منتصف فراشه المدعوم بأسوار خشبية كي لا

يسقط عنه. رمقه الصغير بعينيه الواسعتين بنظرة غريبة أربكته، وهو يتلفت في جوانب الحجرة بحثًا عن مصدر محتمل لهذا الضوء. ومن خلفه توقفت أنغام أمام باب الحجرة ترمقه صغيرها ومحسن والجدران بقلب يرتجف. لاحظت حيرة زوجها فقالت:

- أين ذهب الضوء يا محسن. لقد رأيناه سويًا، أليس كذلك؟

هز كتفيه بلا فهم ولا إجابة لديه. عاد ليرمق الصغير وتوقف أمام فراشه. نظر إليه أدهم وابتسم وهو يمد يده الصغيرة نحوه. لحقته أنغام وتوقفت هي الأخرى بجوار الفراش ورمقت الطفل نظرات متهمة قبل أن تنتهي إلى ذراعه المكشوف. وفي أعلى كتفه الأيسر لمحت دائرةً حمراءَ لم تكن به من قبل. دائرة تشبه جزرة قرمزية اللون وسط بحر من الجلد الأبيض. انحنت أنغام نحو تلك البقعة، وتحسستها بأناملها وغمغمت في دهشة

- ما هذا؟ مِن أين جاءت تلك الندبة؟

لاحظ محسن الدائرة التي تبدو مثل الوحمة على ذراع الطفل فحمله ونظر إليها من قُربٍ وغمغمَ:

- ربما هي وحمة. ألم تلاحظيها من قبل؟

- لم تكن موجودة من قبل. لقد بدّلت ملابسه عشرات المرات، ولم تكن هناك أبدًا.

كان محسن يشعر بالحيرة ممتزجة بالكثير من الخوف وهو

يعلم جيدًا أن طفلهما لم يأتِ لهذه الدنيا بصورة طبيعية، لكنه رغب في طمأنتها فقال وهو يحتضنها من ظهرها:

- ربما انفجرت بعض الشعيرات الدموية أسفل جلده. لا داعي للقلق يا حبيبتي. لو استمرت ولم تختفِ بعد بضعة أيام يمكننا أن نذهب به للطبيب.

تتسع ابتسامة الطفل كأنما يسعده حيرتهما، بينما تقول أنغام في اضطراب حقيقي:

- وماذا عن الضوء؟ لقد رأيناه سويًا. ألم نفعل؟ من أين جاء هذا الضوء وماذا يعني؟

لا يجيبها محسن لأنه بالفعل لا يعرف الإجابة؛ لذا يجذبها نحوه وهو يقول ليطرد بعضًا من مخاوفها:

- ما رأيك لو تجاهلنا كل هذا وعدنا لنتابع حلقة باسم قبل أن تنتهي، ربما كان وهمًا ما رأيناه، حتمًا هو وهم تخيلناه.

يعودان بالطفل الذي راح يحرّك رأسه بينهما في هدوء وابتسامة غريبة لا تفارق فمه، إلى الصالة ليتابعا البرنامج بعقول تنضح حيرة وتوترًا.

وفي اليوم الثاني وضعت أنغام الرضيع في إناء الاستحمام البلاستيكي خاصته. راح الطفل يعبث بمرحٍ بالماء الدافئ وتذكّرت أنها قد نسيت شامبو الصغير في حقيبة التسوق بالمطبخ. تحركت نحو المطبخ الذي يجاور الحمّام وحين خرجت منه كان باب الحمّام موصدًا. مدت يده نحو مقبضه

بذعر لتفتحه لكنه لم يستجِب ومن داخل الحمّام كان الطفل يضحك كما لم تسمعه من قبل.

شعرت أنغام بذعر لا حد له وتمنت لو كان محسن معها في تلك اللحظة. راحت تدفع الباب بكل قوتها في جنون حقيقي، دون أن يستجيب الباب لها، وتضاعف الرعب في أعماقها حين بدأت تستمع لأصوات مبهمة قادمة من داخل الحمّام تتردد بلغة غامضة كأنها ترانيم كنسية منسية. صمت الطفل تمامًا حينها ولم يتبقّ غير الترانيم التي ظلت تأتيها من الداخل فبدأت في قرع الباب بفزع وهستيرية، وهي تنادي أدهم. تتعالى الترانيم فتشعر بالعجز وهي تفكر في الصراخ طلبًا لنجدة ما تساعدها في الوصول لطفلها المحبوس في الحمّام. لكن الوهن والفزع قد بلغ منها مبلغه وحين حاولت الصراخ لم يخرج من حلقها إلا صوت مكتوم . انهارت بجوار الباب المغلق وهي تنتحب وما زالت تدقه بوهن.

وكان عليها أن تنتظر بضع دقائق قبل أن تشعر بالباب وقد تحرّك. غالبت خوفَها ونهضت مسرعة وهي تدفعه للداخل. ما زال أدهم في وعائه البلاستيكي. لكن شيئًا في عينيه أفزعها. لوهلة رأت وهجًا أحمرَ يلتمع في مقلتيه قبل أن يتلاشى في اللحظة التالية ويعود إليهما سوادهما المألوف. عاد الطفل يبتسم لها وهي بمكانها ترتجف وقلبها يتخبط في قفصه الصدري قبل أن يفتح الطفل فمه ويقول:

- ماما.

كانت المرة الأولى التي ينطق فيها. وكادت أن تفقد وعيها حينها.

أنستها الكلمة كل مخاوفها فرفعت ابنها العاري إلى صدرها وراحت تحتضنه في قوة وهي تبكي.

بعد منتصف الليل استيقظ محسن فجأة من كابوس مريع. ما زال مرزوق يلاحقه في كوابيسه من حين لآخر. عاد هذا الأمر المزعج ثانية بعد ولادة أدهم، لكن محسن كان قد تعلّم أن يصحو بلا صخب، كما كان يفعل من قبل. شعر بالظمأ فغادر الفراش متجها للمطبخ. هنا لاحظ الأصوات الغريبة التي تبعث من حجرة الطفل المغلقة. اقترب منها على أطراف أصابعه ليتأكد أنه لا يتوهم. وحين ألصق أذنه بالباب كانت الأصوات جلية تمامًا. شعر بالرعب وهو يميز من بينها صوتًا غليظًا لرجل بالغ بلا شك. تسمر في مكانه وهو لا يدري ما عليه أن يقوم به قبل أن يحسم أمره ويمسك مقبض الباب ليفتحه. لم يطاوعه الباب في البداية فعاود المحاولة وما زالت الأصوات الغريبة المبهمة تصل إلى أذنه.

راح يدفع الباب بجنون ليطمئن على الطفل، ولا بُدَّ أن زوجته قد شعرت به ولهذا اندفعت هي الأخرى مسرعة نحوه والذعر بادٍ على خلجاتها وهي تسأله:

- ما الذي يحدث؟ ابني. هل أصابه مكروه؟

دفع محسن الباب بقوة أكبر فاستجاب له هذه المرة. وحين دخلا الحجرة المظلمة لفت انتباههما الطفل الراقد على فراشه

وعيناه متسعتان عن آخرهما شاخصتان في فضاء الحجرة بلا وعي وفمه يردد كلمات غامضة غير مفهومة وإن كانت تحمل بين أحرفها خوفًا بدائيًا مبهمًا. شعرا بقبضة باردة تعتصر قلبيهما وتلك التراتيل الغامضة التي يتلوها الرضيع تثير في نفسيهما مخاوفَ قديمة مفزعة، لا بُدّ أن عقليهما الباطن وذاكرتهما التراكمية التي يتوارثها البشر جميعًا منذ ملايين السنين قد تذكرت تلك التراتيل التي لم تعد تتردد على هذا الأرض منذ مئات القرون والسنين. لا بُدّ أن لا وعيهما علمَ وتذكر ما تعنيه تلك التراتيل من شرور لا يتحملها البشر. ترنحت أنغام للحظة شاعرة بإعياء رهيب فأعانها محسن على الجلوس على طرف فراش الطفل، ثم أضاء ضوء الحجرة فصمت الطفل وإن ظلّ شاخصًا بخواء للفراغ.

رفع محسن رأسه للسقف ليجد رموزًا غريبة وخطوطًا متقاطعة تملأ سقف الحجرة بلون أحمر دموي. خطوط وطلاسم ذكّرته بما فعله من قبل مع مرزوق في المقبرة. هبط ببصره على الفور نحو جدران الحجرة وجفنيه يرتجفان، متمنيًا ألا تلحظ أنغام تلك الرموز الشيطانية كي لا يزداد هلعها. وهز محسن الطفل ليجعله يفيق. استجاب الطفل لمحاولة أبيه، ورفّ بجفنيه قبل أن ينظر إلى أبويه كأنما يراهما للمرة الأولى، ثم يبتسم.

دفع محسن الطفل إلى أمه وراح يفحص الحجرة جيدا ويتأكد من أن نافذة الحجرة مغلقة بإحكام من الداخل، قبل أن يهتف بزوجته وقلقه لا يفارقه:

- سوف ينام الطفل معنا هذه الليلة.

لم يكن بحاجة لقول هذا فهذا في الواقع ما كانت أنغام قد قررته.

عادت أنغام لحجرتها حاملة الطفل بلا تعقيب وحين عاد محسن من المطبخ بعد أن شرب بعض الماء وجد أنغام تحتضن الطفل الصامت وهي تبكي. رمقها بحيرة وقبل أن يحدثها قالت له بصوت غريب:

- هذا الطفل ممسوس يا محسن. افعل شيئًا من أجله أرجوك. أنت لا تدري ما الذي حدث اليوم في الحمّام. هناك من يبغي إيذاء الطفل وحرماننا منه. إنني لم أعد أحتمل كل هذا يا محسن. إنني في طريقي للجنون لو لم يتوقف كل هذا الآن.

نظر إليها في قلق وردّد في دهشة:

- ما الذي حدث له؟ هل أصابه مكروه.

بدأت تبكي، ثم راحت تحكي له ما حدث. لا حاجة للكثير من الذكاء ليدرك أن ابنه ليس طفلا طبيعيًا، إنه ليس غبيًا ليتجاهل مثل تلك الحقيقة، فقط ما كان يشغله، هو هل أدهم مجرد طفل صغير تستحوذ عليه قوى شيطانية، أم أنه طفله هو مصدر تلك الأفعال المخيفة.

خاطر مخيف في الواقع!

وبينما راح قلبه يدق بقوة في صدره احتوى أنغام، بين

أضلعه وهو يفكر فيما عليه أن يفعله.

2

يتناول محسن الكثير من العقاقير المهدئة. هذا ما اكتشفته أنغام اليوم حين عثرت على الأقراص فجأة بين حاجياته في أحد أدراج دولابه. لم يدهشها الأمر كثيرًا وقد رأته يعاني من كوابيس مريعة تطارده كل ليلة تقريبًا. من المستحيل بالطبع أن يتحمل بشري أن يعاني من كل تلك الكوابيس التي لا تدعه ينام ولو ساعتين كاملتين في الليلة الواحدة. ربما تفسر هذه المهدئات اكتسابه بعض الهدوء في الآونة الأخيرة. تمنت لو كان بإمكانها أن تتناول مثل تلك المهدئات لكن طبيب الأطفال احتد عليها بشدة حين سألته إن كان بإمكانها أن تفعل. أخبرها أن هذه المهدئات تنتقل بسهولة عبر حليب الرضاعة للطفل ومن الممكن أن تصيبه بالضرر.

ما الذي تبدّل فيهما حتى صارا هكذا. هذا ما تفكر فيه طوال الوقت. من قبل كم عانيا سويًا من مشكلة تأخر الإنجاب، ومع هذا لم يصابا بمثل هذا التوتر والعصبية. لم يفقدا كل هذا الوزن الذي فقداه. الآن صار كلاهما نحيلًا كالأشباح. كل هذا يدأ مع حملها ثم إنجابها. كل هذا قد حدث بعد أن أتى أدهم.

كان هذا يحيرها ويدهشها. المفترض أن يحدث العكس. كان من المنتظر أن تنتهي مشاكلهما وخلافاتهما فور الإنجاب. كان الطبيعي أن يستمتعا بحياتهما مع قدوم الطفل وأن تغلفهما السعادة بقدومه. لكن العكس هو ما حدث. لقد أتى الطفل لتذهب البهجة وراحة البال.

أتى الطفل للدنيا وهو يحمل معه الألغاز والغموض. المخيف أنها بدلًا من أن تمنحه حبًا لا حدّ له وقد انتظرته كل تلك السنوات كانت تشعر بالخوف منه. تشعر بهذا وهو تتذكر طوال الوقت ما حدث في حملها من أمور غامضة، الكوابيس التي كانت تزورها كثيرًا في أحلامها، الضوء الأحمر الذي رأته غير مرة يخرج من بطنها، الأحداث المريبة التي تحدث من حين لآخر مرتبطة بابنها، لكن الشيء الذي هز كيانها كله هو إحساسها أنها تشعر نحوه بالكراهية في بعض الأحيان.

كان هذا الخاطر غير السوي هو ما يحطم سلامها النفسي كله، فكانت حينها تنخرط في نوبة بكاء طويلة وتذهب شهيتها تمامًا فلا تتناول أي طعام أو حتى شراب وقتها أي أم هذه التي تشعر بالكراهية نحو ابنها الرضيع الذي لا حول له ولا قوة؟ لكن هذا ما تشعر به كثيرًا. كانت تحمله أسباب تعاستها وزوجها. كانت تخشى نظراته الغامضة التي تشعرها أن هناك ما يداريه عنها الطفل الرضيع ويخفيه. كان يرعبها كل تلك الأمور الغامضة التي ترتبط به. والآن جاءت الكوابيس التي صار أدهم يرعبها فيها!

تزداد نحولًا طوال الوقت. ويزداد أدهم شراهة للرضاعة مع تقدمه في العمر. لقد اكتملت شهور عمره الستة وصار يحبو. ظهرت له سنتان بالفك السلفي ومثلهما بالفك العلوي. كادت أن تفقد وعيها إعياءً وهي ترضعه في المرة الأخيرة. أظلمت الدنيا في عينيها واكتنفها دوار عنيف. حاولت أن تبعده عن ثديها لكنه قبض عليه بأسنانه بعنف آلمها فتوقفت عن

المحاولة وقد شعرت بالخوف منه. وحين انتهي تساقطت قطرات الدم بدلًا من الحليب من ثديها.

دماء؟!

رمقتها بهلع تضاعف كثيرًا حين نظرت لفم أدهم الذي تلوث بالدماء فراح يلعقها بلسانه بنشوة وتلذُّذ. بدا وكأنما يستمتع الطفل بالمذاق النحاسي لدمائها. أبعدته عنها بعنفٍ وراحت تعتصر ثديها لتتأكد. بالفعل كانت الدماء هي ما يخرج منه بدلًا من الحليب. دماء انعكست في عين أدهم فراح يرمقها بشهوة وابتسامة مخيفة ترتسم على شفتيه. اتصلت بمحسن بانهيار وحين أتى ذهبا للطبيب. كانت تخشى أن يكون مصدر الدماء ورم سرطاني. إن هذا ما يحدث مع النساء طوال الوقت. من حسن حظها أن الطبيب طمأنها أنها بخير واقترح أن يكون مصدر الدماء انفجار بعض الشعيرات الدموية داخل الغدد اللبنية في ثديها. اقترح الطبيب بعض الفحوص الطبية للتأكد والاطمئنان ففعلوها في الحال، كان ثديها على ما يرام، فقط كانت هناك تلك الأنيميا العنيفة. انخفضت نسبة الهيموجلوبين في دمائها وصارت أقل من ست درجات، فسر هذا بالطبع شحوبها وضعفها الشديد الذي تشعر به طوال الوقت، بينما صمم الطبيب على نقل بعض الدماء لها وقد رأى أن تلك المرحلة المتقدمة من الأنيميا لن تجدي معها أقراص أو حقن الشديد، وأن نقل الدم هو الحل الوحيد لها الآن حيث يجب أن تقوم به في أسرع وقت ممكن.

وحين ذهبا لبيت حماتها لالتقاط الطفل كانت الأخيرة في

أسوأ حال ممكن وهي تبكي وتصرخ دون أن تتوقف. وأمام الجميع دفعت الطفل نحوهما وهي ترمقه في شك ممتزج بالرعب وتصيح في انهيار حقيقي:

- خذا هذا الملعون بعيدًا عني. لا أريد أن أراه ثانية. إنه شيطان. لقد قتل قطي المسكين. لقد خنقه ثم راح يمزقه بأسنانه. أي شيطان هذا الذي أنجبتماه.

حملت أنغام الطفل في توتر وراحت تتنفس في سرعة بينما حاول محسن تهدئة أمه وبصعوبة أقنعها محسن أن تخبره بما حدث.

كانت أم محسن تقتني في البيت قطًا ليؤنس وحدتها وخاصة بعد أن صارت تعيش بمفردها وقد مات زوجها وتزوج الأبناء وذهب كلٌ في طريقه. ربته مذ كان صغيرًا وراحت تعتني به كثيرًا، كان قطًا شيرازي أبيض ذا شعر كثيف، كسولًا للغاية لكنها كانت تحبه.

كانت قد تركته مع الطفل وهي تدرك أن القط لن يؤذيه. كان القط أليفًا تمامًا ولم يحدث مرة أن حاول إيذاء أي من أطفال العائلة، حتى لو تحرش به أحد الأطفال وجذبه من ذيله مثلًا.

لدهشتها انكمش القط حول نفسه وهو يرقب الطفل بخوف وتقوس ظهره وانتصب شعره وأصدر مواءً غريبا قبل أن يختفي من أمامها ويختبئ أسفل فراشها. لم تلقِ بالًا لمثل هذا الأمر وتركت الطفل يحبو على الأرض وانهمكت في إعداد الطعام.

بعد قليل جذبت انتباها أصواتٌ مكتومة تأتي من خارج المطبخ. تجاهلتها في البداية وقد ظنت أن الطفل ربما يعبث بشيء ما. وحين استمرت الأصوات شعرت بقلق غامض فراحت تبحث عن الطفل. وجدته أسفل فراشها. كان يقبض بكفه الصغيرة على جسد القط، كان جسد القط ممزقًا للغاية وكأنما افترسه حيوان متوحش، بينما تلوّث فم أدهم وكفيه بالدماء. صرخت في رعب هائل ولم تتمالك نفسها فأفلت البول من مثانتها الضعيفة دون أن تقدر على حبسه أو التحكم فيه.

المخيف أن أدهم قد رمقها بلا مبالاة وظلّ يلعق الدماء من جسد القط القتيل.

كان هذا أكبر من مقدرتها على التحمل فصرخت قبل أن تجذب الطفل الذي تمسك بالقط وهو يضربها بكفه معترضًا. غالبت خوفها ونظفت الطفل من الدماء ووضعت جثة القط في كيس بلاستيكي وانتظرت أن يعود محسن. ظلّ الطفل يرمقها بعينيه السوداوين الواسعتين العميقتين نظرات أشعلت خوفها، ومن حين لآخر يمنحها ابتسامة رأتها غير بريئة أبدًا. هل يشعر الطفل بخوفها ويرغب في إفزاعها أكثر وأكثر؟

المخيف أن الطفل وقبل أن يأتي والده قال فجأة:

- كان لذيذًا.

ولولا تعقُّلها حينها كانت لتحبسه في إحدى الحجرات

وتغلق بابها عليه أو حتى تلقيه خارج المنزل.

أي طفل لا يتجاوز الشهور الستة يتحدث، بل ويتلذذ بطعم الدماء. لكت السؤال المفزع هو: كيف قتل الطفل مثل هذا القط البالغ؟ وكيف لم يقاومه القط؟ وهل تكفي تلك الأسنان اللبنية الصغيرة في فم الطفل لتمزيق لقط هكذا؟ أسئلة مرعبة ظلت تراودها وهي تنتظر ابنها في نفاد صبر.

أي شيطان هذا يتملك هذا الطفل!

ظل محسن يرمق الطفل طوال طريق العودة لمنزله بنظرات مليئة بالانزعاج. هل قدّم له ذلك الموقع الغامض طفلاً ممسوسًا شيطانيًا. وفي قرارة نفسه كان يؤمن أن هذا ما حدث بالفعل. لاحظ نظرات الخوف التي ترمق زوجته الطفل بها، وهي تلوذ بصمتها وإن امتقع لونها. لاحظ كذلك النظرات البريئة التي ينظر بها الطفل للعالم من حولهما عبر نافذة السيارة وكأنه يرغب في استكشاف الحياة كلها. من يراه الآن لن يرى غيرَ طفل رضيع لطيف يرمق العالم بنظرات الفضول الأولى..

يقرر محسن أن الوقت قد حان كي يفعل شيئًا ما، شيء يبدد الشكوك بداخله. حان الوقت ليبحث عمن يفهم في تلك الأمور ليعلم هل أنجب طفلًا طبيعيًا أم أنه طفلًا شيطانيًا.

3

أخبره صديقه مؤمن عن الشيخ عبد العليم، وقد أثنى عليه كثيرًا. كان الشيخ يعيش في منطقة الدراسة في الجمالية في القاهرة، حيث عمل طوال عمره محفظا للقرآن الكريم، ثم أجاد بعدها القيام بالرقى الشرعية التي تقي الحسد وأتقن إبطال الأعمال السفلية الشريرة التي يقوم بصنعها الدجالين، كما كان معروفًا بقدرته على إخراج الجان والعفاريت من الممسوسين أو المصابين باستحواذ شيطاني. فعل كل هذا لأعوام كثيرة طويلة. وقام بتلك الأعمال دون أي مقابل مادي، محتسبًا أجره على الله.

الآن قد بلغ الشيخ من العمر ثمانين عامًا، وقد ذهب بصره فصار لا يرى أمامه أبعد من قدميه، ومع هذا ما زال يعمل في تحفيظ القرآن، وما زال يمارس معاركة الغريبة التي لا تنتهي مع قوى الظلام.

بعد صلاة المغرب حمل محسن الطفل واتجه إليه وزوجته. لم يكن من العسير أن يصلوا إلى داره، فكل من عاش في الدراسة كان يعرفه، وتطوع صبي بإرشادهم إلى داره. كان يعيش في بيت قديم من أدوارٍ ثلاثة. بينما علقت فوق بابه الحديدي المنخفض يافطة خشبية قديمة تآكلت أطرافها مكتوب عليها:

«إنا نحن نزّلنا الذّكرَ وإنّا له لحافظون»

الشيخ محمد عبدالعليم

دخلوا البيت حيث كان المدخل مظلمًا. وتناهى إلى مسامعهم صوت الأطفال الذين ارتفعت أصواتهم وهم يرتلون آيات القرآن الكريم. صعدوا بضع درجات درجات ثم دلفوا شقة على اليمين بابها مفتوح. صار صوت الأطفال أكثر وضوحًا فدخلوها. وجدوا أنفسهم في صالة واسعة كانت هي الشقة بأكملها تقريبًا، وقد جلس الأطفال على الأرض فوق الحصير، وفي صدر الصالة جلس الشيخ المسن على أريكة خشبية وفي يده حمل عصا طويلة رفيعة.

تقدَّم محسن بإحراج نحو الشيخ الذي انتبه له فالتفت برأسه نحوه وضاقت عيناه أكثر وهو يجاهد كي يراه وقال محسن:

- أعتذر لمقاطعة الدرس. ظننت أن هذا الوقت قد يكون مناسبًا لزيارتك. يبدو أنني قد قد أخطأت.

اعتاد الشيخ عبد العليم تلك الزيارات الطارئة، ولم يكن من العسير عليه تخمين سببها، فلم يعد يهتم بالسؤال عن أسبابها. بائس بلا شك هذا القادم هو شخص آخر يبغي المساعدة. فهمهم وهو يشير للأطفال الذين كفوا عن الترتيل بمعاودة التلاوة وقال لمحسن في هدوء بصوت رخيم يحمل طمأنينة العالم كله:

- لا عليك يا بني. مرحبًا بك في أي وقت. فقط أعطِني دقائقَ عشرٍ وسوف أكون معك. يمكنك أن تنظر في تلك

الحجرة. إن بها مقاعد.

عاد الأطفال لترتيلهم الحماسي واتجه محسن وزوجته إلى حجرة في نهاية الشقة تجاور الحمّام. كانت معتمة فبحث عن مفتاح الإضاءة حتى وجده. بدّد الضوء الأصفر الظلام فبانت معالم الحجرة. كانت بسيطة مفروشة بالحصير في مقدمتها أريكة خشبية تُشبه تلك التي يجلس الشيخ عليها بالصالة ومن حولها بعض المقاعد الخشبية. جلسا سويًا فوق أحد الأرائك وأنغام ترمق المكان بنظرة قلقة فربت محسن على كفها محاولًا طمأنتها فلاذا بالصمت في انتظار الشيخ.

اختفى صوت الأطفال رويدًا وقد انصرفوا ثم تحرك الشيخ تتقدمه عصاه الخشبية نحوهم. تحرك مباشرة نحو أريكته الخشبية فتربع عليها، ورحب بهم ثانية قبل أن يغمغم وهو يضيق من عينيه وهو يرمق الطفل بنظرات فاحصة:

- لا أظن أنكما هنا من أجل أن توصياني بتحفيظ هذا الطفل بعض القرآن.

ابتسما لطرافة ما قاله، وأجاب محسن في صوت يحمل الكثير من الرجاء:

- نحن هنا من أجل الطفل يا مولانا، لقد حدّثني أحد الأصدقاء عن كرامتك وأخبرني أنك الوحيد القادر على مساعدتنا.

هز الشيخ رأسه بتفهُّم وانتظر أن يكمل محسن حديثه، فابتلع الأخير ريقه في توتر ونظر لزوجته قبل أن يستطرد:

- إننا لا ندري ماذا حلّ به. لكنّ هناك أشياء مخيفة تحدث للجميع منذ مولده.

بدا بعض التوتر على وجه الشيخ العجوز الممتلئ بالتجاعيد، وهو يغمغم:

- وما كنه تلك الأشياء؟ أريدك أن تخبرني بكل شيء.

تبادل محسن النظرات مع زوجته المضطربة، وهي استفاضة راح يقص على الشيخ الأشياء الغريبة التي اقترنت بالطفل منذ مولده. وحين انتهى محسن دون أن يقاطعه الشيخ، اضطربت أنفاس أنغام قليلًا، فرمقها الشيخ بعينيه الواهنتين متفحصًا قبل أن يقول بهدوء:

- أعتقد أن لديك ما تضيفيه يا بنيتي. أليس كذلك؟

كانت أنغام تجاهد بقوة كي تتمالك نفسها ولا تنهار أو تبكي وقد بلغ منها التوتر مبلغه. يرمقها محسن بتوتر، ويحملق فيها الطفل بعينيه السوداوين الواسعتين، يحملق فيها كأنما ينتظر هو الآخر ما سوف تبوح به. يطول تردُّدها فيخاطبها الشيخ حاثًّا إياها على التحدث:

- أنتما هنا كي أساعدكما يا بنيتي فتحدثي. عليك أن تخبريني بكل شيء لأكون قادرًا على المساعدة.

مرة واحدة تحدثت أنغام، بدت وكأنما تلقي على أسماعهما توترها كله وهي تقول:

- الكوابيس. دومًا هناك الكوابيس التي تخيفني من أدهم.

وتصمت لترمق الطفل وتحبس نفسًا عميقًا في صدرها وتطلقه بتنهد طويل وتكمل وقد بدأت تبكي:

- كل ليلة أحلم بأدهم. وكل الأحلام صارت كوابيسَ لعينة. أحيانًا هناك طفل ميت يحاول اختطافه أو إيذاءه، وفي مرات أخرى أجد أدهم نفسه هو من يحاول إيذائي أنا. لا تتخيلون كيف يتحول حينها لوحش مخيف وهو يلاحقني في كوابيسي ليظفر بي. هل تتخيلون هذا الرعب الذي أحياه كل ليلة. طفلي الذي تمنيته طوال عمري صرت أخشاه كالموت، وكلّما برز في حلم لي يكون الفزع من نصيبي، و... و...

لم تستطع إكمال حديثها وراحت تنتحب وجسدها يرتجف وينتفض. بينما تلاحقت أنفاس محسن من الإثارة وقد أشارت إلى مرزوق الذي يزورها في أحلامها. إذًا فهي تحلم الحلم نفسه الذي يأتيه ليالي كثيرة. إنها ترى مرزوق الذي يبغي الفتك بالطفل والانتقام منه.

وقال الشيخ عبد العليم وهو يمدُّ كفَّه نحوهما:

- اقتربا بمقعديكما وقرِّبا الطفل منّي.

نهض محسن بسرعة وقرب مقعده قبل أن يقرب مقعد زوجته التي تحمل الطفل، جلسوا ثانية ووضع الشيخ كفه الضامرة المعروقة فوق جبهة الطفل وأغمض عينيه وراح يقرأ بعض آيات القرآن. في البداية كان صوته مرتفعًا وهو يقرأ ويردِّد:

«لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ»

«قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إلا قَلِيلا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا»

ويخفت صوته فلا يستمعان إلا همهمة غير مفهومة ويهتز الطفل، يتحرك بقلق بين أصابع أمه. يبدأ في الصراخ ولا يترك جبهته الشيخ. تتقلص خلجات الشيخ كأنما يعاني من شيءٍ ما لكنه لا يصمت، ويواصل تراتيل آيات القران الكريم بصوت خافت.

يرتفع صراخ الطفل ويبدأ جسده في الانتفاض. هنا تمتد يد الشيخ الأخرى نحو جبهة محسن. شعر بها محسن باردة قاسية، وبفزع وجد نفسه يغلق عينيه ولا يقوى على فتحهما. وبعد لحظات أدرك ما يحدث. ذكرياته كلها تنسال بسرعة من عقله عبر يد الشيخ لذاكرة الشيخ نفسه. يرى نفسه وهو يقيد مرزوق في القبر، يرى الطقوس الشيطانية اللعينة التي قام بها في القبر، يعاود صراخ مرزوق المستغيذ به ليملأ أذنيه ثانية، ويعاوده الشعور بالعار ويحاول بكل قوته أن يتخلص من كف الشيخ أو يقاومه كي لا ينتهك ذاكرته ويدرك جُرمه.

لكن يد الشيخ تطبق عليه كالمخالب وقوة رهيبة تتغلب على مقاومته فلا يقدر على فعل أي شيء.

يصرخ الطفل وينتفض محسن وتتقلص تجاعيد الشيخ عبد العليم وتضطرب أنغام ولا تدري ما الذي عليه أن تفعله. تشعر بالعجز فتتجمد في مكانها.

يستمر الجنون لدقائق ظنت أنغام أنها لن تنتهي أبدًا قبل أن يهمد كل شيء حين يرفع الشيخ كفيه عن زوجها وطفلها، ويسود صمت ثقيل على المكان. يلهث محسن بعنف وقد أطرق برأسه نحو الأرض، وتهمد حركه الطفل إلا من أنفاس بطيئة وعيون الجميع محدقة بالشيخ لا ترمش. والشيخ الذي وضع كفه على قلبه كأنما يهدئه وهو يتنفس بسرعة وحبات من العرق تحتشد على جبهته ونظرات غريبة ينقلها بين محسن والطفل.

في النهاية غمغم الشيخ بألم حقيقي لمحسن:

- ما الذي أوقعت نفسك فيه أيها التعس؟ لقد أفسدت كل شيء.

لا يرد محسن وما زال يلهث ولا يرفع عينيه نحو الشيخ الذي كشفَ سرّه بينما تهتف أنغام بفزع:

- ماذا هناك يا شيخ، ولماذا تحدّث محسن هكذا؟ ما الذي حدث؟!

ينظر الشيخ للطفل ويرتجف جسده للحظة قبل أن يقول

في وجوم واقتضاب:

- اطمئني يا بنيتي. كل شيء سيكون بخير بإذن. أرجو أن تعذريني لأنني مُرهَق اليوم ولن أقدر على فعل أي شيء من أجل طفلك. سأنتظركما غدًا بإذن الله لنبدأ العلاج.

ظلت أنغام ترمقه في رجاء قبل أن تقول:

- وماذا عن ابني؟ ما الذي أصابه؟ هل هو ممسوس حقًا ولماذا كان يصرخ هكذا حين كنت تقرأ القرآن ويدك على جبهته؟

- اطمئني يا بنيتي. إنه بخير. إنه مجرد مس أرضي طالما عالجته، وسيبرأ منه بإذن الله. والآن هل يمكنكما أن تتركاني لأرتاح قليلًا.

في الواقع كان محسن أكثر من يرغب في مغادرة المكان كله وقد افتضح أمره أمام الشيخ، فكان أول من نهض وهو يحمل الطفل ويقول لزوجته:

- هيّا بنا يا حبيبتي.

ينصرفان بوجوم ويرمق الشيخ محسن بنظرات كلّها مقت وسخط. كان قد رأى كل ما حدث منه. رأى الطفل الصغير مرزوق وهو يتوسل إليه طلبًا للنجدة. رأى الأم الملتاعة والأب البائس الحزين على ابنه. رأى الشر الكامن في أعماق الطفل. ورأى الروح البريئة التي تذوى وتضمحل في كل لحظة في نفس الطفل. شعر الشيخ بالعجز وأدرك أن الأمر

فوق طاقته وقدرته. الأمر أكبر من قدراته هذه المرة. لا يدري لماذا أخفى عجزه عن الأم التي انتظرت منه أملًا ما. لقد وعدها بالمساعدة وهو يعلم أنه لن يقدر.

ومرة أخرى تراءى لعقله الشر الرهيب المستكين في نفس الطفل. ويمضي الوقت دون أن يقدر على إبعاده عن عقله وتفكيره. يضطرب قلبه ولا يشعر كم مضى من الوقت. تظلم صالة الشقة ويخيم على المكان صمت ثقيل. صمت مخيف بارد يقشعر بدنه منه. ويدرك على الفور ما الذي حضر وماذا يبغي. وحين يغلف الظلام حجرته التي ما زال متربعا داخلها على أريكته الخشبية يرتفع صوته بالقرآن طلبًا للأمن وطردًا للشياطين.

تضيق أنفاسه وتحتبس الكلمات في حلقه وتنزاح الغشاوة البيضاء التي حجبت العالم عن بصره لأعوام طويلة. ويرى بوضوح ذلك الذي يبغي القضاء عليه.

وكان يعلم كينونة الشر القديم الذي يواجهه الآن. كان أكثر من يدرك أنه لا قِبَل له أو لأي بشري آخر بملاقاة مثل هذا الشيطان الرجيم. لم يكن هناك ما يمكنه فعله فهز رأسه في يَئِس وقد أدرك النهاية المحتومة. راح شريط حياته الطويلة يدور بسرعة خارقة في عقله، صراعه الطويل مع الشيخ الأسود والمعارك التي لا تحصى التي خاضها الاثنان ضد بعضهما البعض. لقد انتهت معركته الآن مع قوى الشر والشياطين وأعوانهم، كان يعلم ومنذ البداية أن نهايته لن تكون طبيعية أبدًا، لن يموت كالبشر الآخرين على فراشه، كان

يعلم أنه سيهلك ذات مرة في مواجهة ما مع أحد الشياطين أو المردة أو الجان العصاة، لكن العمر امتد طويلًا وتجاوزَ الثمانين من عمره، فلم يعد منذ وقت طويل يؤرقه أن يموت.

فقط تمنى أن يمضي الأمر سريعًا. تمنى ألا يتألم طويلًا. كان يعلم كنه القادم، كان ومَن ذا الذي لا يعرف أبادون، أحد سادة الشر القدامى. يعلم أنه لا فرصة لبشري مهما أوتي من قوة على مواجهته، يعلم أنه لن يقتله بسرعة وأن الألم القادم لن يكون سهلًا أو محتملًا.

اقتربت الخطوات أكثر وأكثر، وارتفعت الرائحة الكبريتية الرهيبة في المكان، ثم شعر الشيخ باليد المخلبية التي أمسك برأسه وسمع الصوت الرهيب يتردد في أذنه:

- هل أنت مستعد أيها البشري؟

أغمض الشيخ عبد العليم عينيه في اللحظة التالية، وجاء الألم الرهيب، وهو يدعو الله في سره دعاءه الأخير:

- يا إلهي الرحيم ارحمني.

ثم تعالت بعدها صرخاته.

4

لم يرغب محسن في العودة ثانية للشيخ عبد العليم، شعر أن الرجل يعرف سره وأنه صار يمقته كالشياطين، لكن خوفه من أن تشك زوجته في أمره دفعه للعودة لبيت الشيخ برفقتها والطفل، وحين بلغا الشارع الذي يقطن فيه الشيخ سمعا الهول. كانا قد أحسا مذ وطأت أقدامهما الشارع بالتوتر الذي غلّف الجو من حولهم. الوجوه مشدودة والعيون قلقة متحفزة ورجال الشرطة يحيطون بالبيت القديم ليؤكدوا الخبر والتخمينات. انتحى محسن بأحد الصبية ولم يشأ أن يتقدم أكثر نحو البيت كي لا يتورط في الأمر وإن أنبأه هاتفه الداخلي أن شرًا قد أصاب الشيخ العجوز.

لم يكن الصبي بحاجة للكثير من الأسئلة كي يتحدث، بل راح يقص بحماس حقيقي ما يعلمه. وجدوا الشيخ في الصباح مقتولًا. أشلاؤه ممزقة ودماؤه تغمر كل شيء في الحجرة، والرأس ممزق بشدة، ومفصول عن الجسد وعلى ظهر الجثة انطبعت علامة مخيفة أفزعت كل من يراها. لا تدري الشرطة من الجاني لكن كل من في الشارع يدرك أنهم الشياطين الذين طالما حاربهم الشيخ.

شحب وجهُ أنغام، وارتعشت قدما محسن وهما تحملانه بالكاد، بينما تراقصت ابتسامة مخيفة على شفتي الطفل ولمعت عيناه. ويفكر محسن وهو يرمق الطفل. هل يدرك ابنه ما يحدث وهل له يد في ما حدث للشيخ؟

الإجابة التي تخيلها في نفسه أفزعته.

جذب محسن زوجته الواجمة وهي تحمل الطفل السعيد بعيدًا وهو يقول:

- هيّا بنا قبل أن يشعر بنا أحدهم ويشك في أمرنا.

يحاول في الطريق أن يخفف من وطأة الخبر عليها وقد لاذت بالصمت التام، فقال لها:

- رحمه الله. إنها مصادفة غريبة بلا شك. لكن تأكدي أنه لا شأن لنا بما جرى له. إننا لم نرَه إلا بالأمس.

ابتسمت أنغام ابتسامة شاحبة ورمقت الطفل الذي تحمله بنظرة محملة بالاتهام، ثم تحرك بصرها نحو نافذة السيارة وراحت ترمق المارة بشرود. لماذا قال لها محسن إنهم لا شأن لهم بمقتل الشيخ عبد العليم. ليته صمت ولم يقل ما قال. لقد أكّد لها بكلماته تلك مخاوفها وظنونها.

كانت من حين لآخر ترمق طفلَها. تتأمل ابتسامته البريئة التي تكشف عن أسنان أتت قبل حينها بكثير. ترى في عينيه العاقلتين نظرات لا تنتمي لعالم الطفولة البريء. تتذكر صراخه بين يدي الشيخ وتتذكر الجزع الذي غلّف وجه الشيخ حينها. ثم تفكر في اضطراب زوجها هو الآخر وهو بين يدي الشيخ، تتردد في أذنها كلمات الشيخ الغريبة التي وجهها لزوجها:

«ما الذي أوقعت نفسك فيه أيها التعس. لقد أفسدت كل

شيء!»

هل يعني هذا أن زوجها متورط في تلك الأحداث المخيفة التي تدور حولها؟ لماذا لم يدافع زوجها عن نفسه حين قال الشيخ له هذا؟ لماذا لم يندهش أو يتعجب مما قاله الشيخ؟ ولماذا تقبل تلك الكلمات المليئة بالاتهام بتلك النظرة العاجزة التي أبداها للشيخ حينها؟ ماذا يخفي محسن عنها؟ أحنقها أنه لا إجابات لديها لأي من تساؤلاتها تلك. وحين نهشتها مرارة التساؤلات أكثر وأكثر قررت مواجهة زوجها فقالت:

- محسن. هل تخفي عني شيئًا ما؟ هل تعلم حقيقة ما يحدث؟ أخبرني بالحقيقية أرجوك. ما الذي يحدث لنا وللطفل؟

كانت تصرخ بالكلمات حينها. حاول محسن التماسك في تلك اللحظة أمام بصرها لينفي تهمة تثبتها عينيه الزائغتين وهو يغمغم:

- لم أفعل أي شيء يا انغام. صدقيني لا شأن لي بأي مما حدث.

بعد يومين بدأ الطفل في المشي مرة واحدة فراح يتنقل بقدمين مترنحتين احتاجتا ليومين فقط من المحاولة كي تنتظم خطواتها القصيرة. صار طفلًا يسير في ثبات ولم يكمل الشهور السبع بعد من عمره. طفل يذهل الجميع ويثير في أنفسهم إحساسًا مبهمًا بالخوف. لم تقبل حماتها أن يتركا الطفل معها ثانية. وتحاشت أختها زيارتها بعدما حدث مع

طفلها. بينما أخبرتها أمها أن نظرات الطفل لم ترَها في أعين طفل من قبل، وأنها تخشاها في الواقع.

لم تستنكر ما قالته أمها، وهل يمكنها أن تفعل وتلك المشاعر نفسها تراودها وتسيطر عليها. لقد صارت تخشى الطفل وتخافه كأنما تراه وحشًا..

راح أدهم يتحرك طوال الوقت في البيت دون أن يكف عن ملاحقتها. أمر طبيعي يحدث للأمهات جميعا وخاصة في الشهور الأولى التي يتعلم الأطفال الحبو فيها. لكنها عيناه. عيناه اللتان ترى أنغام فيهما ما يخيفها حتى إنها تعودت أن تتحاشهما طوال الوقت. تبدل ملابسه دون أن تنظر إليهما. تطعمه دون أن ترفع بصرها أكثر من مستوى فمه. تغسله وهي ترمق الفراغ من خلف رأسه.

كان جنونًا ما تشعر به، لكن لا حيلة لها أبدًا فيما تحس.

كانت تقتني عصفورين صغيرين في قفص معدني. وكانت تهتم بالعصفورين كثيرًا، وتحرص دومًا على توفير طعامهما ونظافة قفصهما. كانت تنتظر أن يتزاوجا وأن يأتيا بالمزيد من العصافير الصغيرة. لكن حلمها هذا لن يرى النور أبدًا بعد الآن؛ لقد تطوع أدهم بوأد حلمها تمامًا.

كانت في المطبخ تعد الطعام. وبعد حين وحين خرجت كان القفص المعدني ملقى على الأرض، لا تدري كيف سقط القفص من مكانه المرتفع لكنها وجدت أدهم يجلس بجواره وقد لوى عنقي العصفورين بكلتا يديه وراح يهزهما بعنف

وقد فارقا الحياة. رآها فابتسم وقال بصوته الطفولي:

- انظري يا أمي . إنهما رائعان.

كادت أن تفلت صرخة فزع من فمها وقد بدا طفلها مخيفًا للغاية في تلك اللحظة، وبالكاد خلّصَت العصفورين من كفيه وهو لا يكف عن الصراخ معترضًا.

لاحظت بعدها أنه صار يختفي أحيانًا عن بصرها. وحين كانت تبحث عنه تجده في أماكن غريبة، مرة هو أسفل الفراش ومرة أخرى داخل الدولاب ومرة ثالثة أسفل طاولة السفرة. لم يكن يلعب مثلاً حين يختفي بل كان يكتفي بالجلوس متجمدًا في وضع لا يغيره وحين تلمسه حينها تجد جلده باردًا كالثلج وعيناه متحجرتين في مقلتيه لا تتحرك. ولولا حركة تصدر من صدره حينها لظنته قد فارق الحياة. وفي كل مرة تحتاج لأن تهزه بعنف وهي تناديه مرارًا ليفيق من غيبوبته الغريبة تلك. وفي كل مرة يفيق ليبدو على وجهه تعبير غاضب، تتبدل ملامحه الطفولية البريئة حينها وتصير أكثر قسوة.

أكبر عمرًا بكثير.

أعقد تعبيرًا.

اعتادت منه همهمته الغامضة وحديثه بلغة غريبة، وكان هذا أكثر ما أرعبها منه. يتصلب جسده فجأة وتغرب عيناه وتختفي حدقتاهما، ويبدأ فمه في الحديث بتلك اللغة غير مالعروفة. تشك أنها اللاتينية فتزداد هلعًا. ما زالت تتذكر ما

شاهدته في أحد أفلام الرعب الأجنبية من أمر مماثل. وكان التفسير الذي أتى في ذلك الفيلم الذي لا تذكر اسمه تحديدًا، أن الطفل مُستحوذًا عليه. ومما تراه الآن تدرك أن الأمر حتمًا لا يختلف مع ابنها. لا يفعل الأطفال الأسوياء أبدًا ما يفعله ابنها وإلا جن الآباء جميعًا وفقدوا عقولهم.

وفي الليل اعتادت أن تستمع إلى الأصوات المختلفة التي تصدر من غرفته، وفي كل مرة تدخل حجرته فجأة تجده راقدًا على فراشه وعيناه شاخصتان نحو سقف الغرفة بثبات ولا أحد هناك غيره.

تآكلت مقاومتها وتماسكها مع كل ما يحدث لها من حول، فارقها النوم والذي إن أتى لا يأتي دون كوابيسه، تصير أكثر صمتًا وأقل اكتراثًا بما حولها. تتقوقع في نفسها وتختفي في حناياها مخاوفها ووساوسها. صارت تثور أحيانًا بلا سبب، أو تتملكها لا مبالاة غريبة فلا تكترث بأي شيء أحيانًا أخرى. كانت ترعى أدهم بصورة آلية وكأنها تؤدي وظيفة عليها القيام بها.

تبدلت لهفتها وحبها له إلى خوف منه. خوف أجج هو ناره بما يقوم به.

وبعد شهرين كانت قد انتهت تمامًا. وحين دخلت الحمّام لتغتسل وقد خلعت ملابسها كلها دون أن تغلق باب الحمّام بإحكام، وبينما يغمر الصابون جسدها وهي تدير ظهرها للباب شعرت بتيار الهواء الخفيف يضرب جسدها العاري. نظرت

للخلف لتجد أدهم. طفلها الذي بلغ الشهور التسعة من عمره. كان واقفًا وهو يراقبها باستمتاع وعلى شفتيه ابتسامة لم تَرُق لها وفي عينيه نظرة لا يمكنها أن تصفها أبدًا بالبراءة. لا تدري لما شعرت بالخجل أمام نظراته التي يرمقها بها. ووجدت نفسها تجذب المنشفة لتداري جسدها العاري وقد احتقن وجهها وصرخت في وجهه:

- انتظر بالخارج ولا تدخل الحمّام ثانية. هيّا اخرج.

هنا فوجئت به يقول ببطء:

- ماما. أنتِ جميلة.

ثم غادر الحمّام وهي تكاد أن تفقد وعيها. أي عاقل يستمع لتلك الكلمات ويعتقد أنها تخرج من حنجرة طفل حقيقي. وحين خرجت من الحمّام كان بانتظارها وما زالت تلك النظرة الغريبة في عينيه. تحاشت نظراته وأغلقت عليها باب حجرتها وهي تفكر. أتكون هناك روح أخرى قد تلبّست ابنها. روح تعود لرجل ناضج يدرك ما يراه. هل كان ابنها استنساخًا لشخص آخر.

قرأت أن تلك العقيدة منتشرة للغاية عند الهندوس. إنهم يؤمنون أن الأرواح حين تغادر أجساد موتاهم تبحث عن جسد جديد لتحل فيه لتعود للحياة ثانية. هل يعني هذا أن روحًا غريبة هي ما تحرك ابنها وتتعامل مع الحياة المادية من خلال جسده الصغير. لكن ألا يتعارض هذا مع عقيدتنا الإسلامية؟! إن الأرواح بيد الخالق وحده، وهو الوحيد القادر

على تصريفها والعناية بأمرها.

وفي كابوس الليلة تتغير الأحداث. إن شياطين الليل التي تصنع كوابيسنا منتشية اليوم وهي تؤدي عملها بإخلاص حقيقي. وكانت هي في فراشها عارية إلا من لباس خفيف. ولم يكن محسن في الكابوس بجوارها. وبعد قليل ترى أدهم وهو يختلس النظر إليها. وهو يتفحص جسدها وينهشه بنظراته. وهو يقترب منها بكف صغير ليتحسس صدرها. تفتح عينيها في الكابوس لتجده راقدًا فوقها. وتمدّ يدها بذعر لتدفعه بعيدًا عنها، لكن شيئًا أقوى منها يمنعها ويقيد ذراعيها. ينهشها الطفل بقبلات تعبق بالشهوة وحين تمتد يده نحو ملابسها لينزعها تنجح الصرخة في تجاوز حلقها وتصحو من نومها. لا بُدّ أنها خرجت مكتومة لأن محسن ما زال نائما بجوارها ولم يستيقظ.

راحت تنتحب بصمت ومقتها نحو طفلها يتصاعد. لم يعد طفلها بل شعرت أنه طفل غريب، لا تعرفه. طفل لا ينتمي إلى أحشائها التي خرج منها. وحين شعرت بمثانتها تلح عليها وتحركت نحو الحمام كان هناك أمام عرفته بانتظارها وما زال يبتسم. وكان هذا أكثر من أن تحتمله. وفتح فمه وتكلم:

- حلمت الآن بك يا ماما، لقد كنت معك منذ قليل.

لم تشعر بنفسها بعد كلماتها تلك. اندفعت نحوه بجنون ودفعته نحو حجرته. وحين أدرك ما تنتوي أن تفعله أراد أن يصرخ لكنها كتمت فمه بكف يدها. ألقته على الفراش

ووضعت وسائد الفراش كلها فوق رأسه وقد قررت التخلص منه. كان جنونًا لكنها كانت أضعف من أن تقاومه في تلك اللحظة. راح أدهم يقاومها بعنف وهي تضغط الوسائد بجسدها كله. كانت في أعماقها تصرخ بصوت غير مسموع:

- هيّا مت أيها الشيطان!.. هيا مت!.. مت!..

ويمضي الوقت ببطء ثم تهمد حركه الطفل تمامًا لكنها تستمر في ضغطها على الوسائد للحظات بعدها قبل أن تنهار بجواره. هنا خرجت من فمها صرخة توقظ الموتى فهرع محسن نحوها بفزع. ومن النظرة الأولى أدرك ما فعلته. كان في غير حاجة لأن تخبره ما فعلته. لكنها تحدّثت، وقالت باكية:

- لقد قتلته يا محسن. لقد قتلت طفلنا. قتلته بيدي هذه.

5

لم يمت أدهم..

اندفع محسن نحو جسد الطفل المدفون تحت الوسائد. أزالها من فوقه ونظر إليه بحسرة. لكن الطفل كان حيًا. كان يرمقه بوجه خائف وعينين ملؤهما الذهول. احتضنه محسن باكيًا، بينما رمقته أنغام بحيرة وصمت، وقد كفكفت دموعها. الغريب أن تعبيرًا بالبرود واللامبالاة قد ارتسم حينها على محياها، بدا وكأنها لا تكترث بما فعلته منذ قليل ولا تهتم إن كان طفلها ما زال حيًا أم مات.

في اليوم التالي اصطحبها محسن للطبيب النفسي. كان من المستحيل أن يتجاهل مع ما قامت به وكانت زيارة طبيب نفسي ما هي الحل الوحيد. أخبر الطبيب قبل أن تدخل بما فعلته مع أدهم، ثم أدخلها بعدها حجرة الطبيب الذي طرح عليها الكثير من الأسئلة. أجابت بعضها وامتنعت عن إجابة أغلبها وتشاغلت بمراقبه ملصق على الحائط يمثل العقل البشري بعيون جامدة.

في النهاية أخبره الطبيب أنها تعاني من اكتئاب ما بعد الولادة، وأشار عليه أن يفضل أن يتم احتجازها بمصحة نفسية خاصة لبعض الوقت لأنها في حالة عقلية خطرة وقد تقدم على القيام بجريمة ما.

في الواقع لم يرغب محسن أن تتواجد أنغام مع طفلهما بمفردهما ثانية، كما أراد أن تكون في الفترة القادمة تحت

العناية الطبية الدائمة. لهذا لم يمانع محسن في ذهابها للمصحة النفسية الخاصة.

سألها بحذر إن كانت تقبل هذا أم ترفضه؟ لكن وجهها الجامد وعينيها الباردتين الصامتتين لم يعطوها الإجابة التي يرجوها. هنا أخبر الطبيب بموافقته وقرّر الطبيب وضعها في مصحة نفسية خاصة يشرف عليها بالمعادي.

ساعدها في حجرتها بالمصحة على تبديل ملابسها لترتدي ملابس المصحة. رفع كفيها لشفتيه وقبّلهما بعيون دامعة وهمس لها:

- سامحيني. لا أصدق أنني أفعل هذا بكِ. لكن هذا من أجلك ومن أجل طفلنا.

لم تعقب. لم تسحب ذراعيها من كفيه. لم تبكِ ولم يبدُ عليها الاعتراض. تمنى لو تجيبه بأي شيء. تمنى لو تغضب منه، لو تخبره أنها تغفر له ما يفعله. تمنى لو تحدّثه بأي شيء. لكنها لم تفعل أي من تلك الأشياء. بدا وكأنها لم تعد تنتمي لهذا العالم وأن عقلها راح يسبح في عالم آخر.

كان أدهم في البيت سعيدًا. راح يلهو حول محسن في مرح، والغريب أنه لم يسأل محسن أين ذهبت أمه ولماذا اختفت. هل كره الطفل أمه هو الآخر مثلما كرهته وفرح بغيابها؟

إنه الوحيد من يعلم بسر هذا الطفل. هو الوحيد الذي يدرك كيف أي هذا الطفل بصورة شيطانية، وماذا فعل كي

يأتي للحياة. يحتفظ بكل معاناته في أعماقه، ولا ينسى أبدًا مرزوق. قربانه البشري كي يكون هناك أدهم. لا يغادر كوابيسه ودومًا يبغي الانتقام منه. لم يعد يحظى بنوم هادئ أبدًا. رافقه القلق فأدمن المهدئات وارتفع معدل تدخينه بصورة رهيبة. يرى هواجس زوجته من الطفل وتقص عليه الأمور الغريبة التي يفعلها الطفل، فيحاول أن يقنعها أنها تتوهم هذا وأن الطفل بريء مما تتخيله.

لكن هل الطفل بريء حقًا وزوجته هي من تتوهم هذا؟

يلتصق الطفل بقدمه فيحمله على قدميه ويقول:

- هل تحب أمك. هل تشتاق إليها؟

- أمي قد ماتت.

يرمقه بذهول، وينحني برأسه نحوه. ويقول بابتسامة متوترة:

- كلا يا أدهم، لا تقل هذا. ماما لا زالت حية. إنها فقط مريضة وستغيب عنك بعض الوقت.

- إنها تكرهني، ولا تحبني. إنها تكره أدهم وتكره مرزوق.

انتفض جسده كله حينها وكاد الطفل أن يسقط من بين يديه المرتعشتين. بينما راح الطفل يرمقه بعينيه الواسعتين العميقتين في ثبات، هل ينظر إليه الطفل بسخرية، أم بتحد، أم أنه يتوهم.

وهمس محسن بصوت مخنوق:

- مرزوق مَن يا حبيبي؟ مَن الذي تقصده يا أدهم؟

- ألا تعرفه؟ لقد أخبرني أنه كان يحبك.

ثم تخلص الطفل من كفيه، وعاد لمرحه كأنما لم يقل شيئًا. يتابعه محسن بخوف وقد أدرك لماذا كانت تخشاه زوجته هكذا.

إنه يتحدث عن مرزوق. يتحدث وكأنما يعرفه. طفل لم يبلغ العام بعد ويتحدث بكل هذا الوعي.

في المساء نام بجوار الطفل. وفي حلمه كان مرزوق يبتسم بتشفٍّ. وهمس له:

- لقد حان وقت الانتقام.

وفي نفس اللحظة وفي المصحة النفسية التي ترقد فيها أنغام حدثَ أمر رهيب. استيقظت فجأة بالرغم من كم المهدئات الهائل الذي تعاطته لتنام. وبجوار الفراش كان هناك أدهم. عقلها المشوش وتفكيرها المضطرب لم يسعفاها لتفكر كيف أتى الطفل إليها الآن. كان حينها يبتسم. ابتسامته الشيطانية التي لا تنتمي أبدًا لطفل في مثل عمره. وحدّثها بصوت مخيف:

- لقد أردتِ قتلي. أردت خنقي. لكنني لم أمت. وها أنا أعود إليكِ لأنتقم.

وبينما يغادر عقلها التشوش، وتبدأ في إدراك ما يدور حولها ترى ملاءة الفراش وقد استحالت حبلًا بين أنامل خفية

رفعتها في الهواء وثبتتها في السقف. وتحرك طرف الملاءة الحر نحوها، ونظرت للطفل وصفا عقلها فجأة وقد أدركت ما يحدث. أرادت أن تبتعد أو أن تصرخ طلبا للنجدة. أو حتى ترجو طفلها ألا يفعل ما هو مُقدِم عليه. لكن شيئًا من هذا لم يحدث. واتسعت ابتسامة الطفل والحبل يلتف حول عنقها بإحكام. وارتفع جسدها في الهواء وشعرت بالاختناق وألم رهيب في عنقها. وقبل أن يذهب بصرها تمامًا رمقته لمرة أخيرة.

أدركت أنه لم يكن طفلها أبدًا.

كان يرمقها بلا مبالاة والسعادة تملأ عينيه.

في نفس اللحظة شعر محسن بتلك الأيدي الصغيرة التي تهزه وهو في فراشه. يفتح عينيه ليجد أدهم يعتلي صدره العاري ويهزه ليصحو. يبتسم للطفل ويقول مداعبًا وهو يرفعه بكفه لأعلى:

- لماذا ما زلت مستيقظًا. هل أنت جائع أم تراك مبلولًا.

ويجيبه الطفل:

- لقد ماتت أمي الآن. إنها معلقة بالسقف.

انقبض قلبه تمامًا وأحس أن الطفل لا يهذي ولا يحلم أو يتخيل ويختلق ما يقوله. إنه يبلغه رسالة ما.

نهض من الفراش وراح يتصل بالمصحة. لم يرد عليه أحد في المرة الأولى وفي الثانية أتاه صوت فتاة ناعسة:

- معذرة، لكن الأمر عاجل. أريد الاطمئنان على زوجتي الآن. تدعى أنغام. إنها في الطابق الثالث غرفة (46).

غمغمت وهي تتثاءب حالمة بالعودة لنومها:

- لا بدّ أنها نائمة الآن. لا أحب أن أزعجها. يمكنك الاطمئنان عليها في...

قاطعها بغضب وعصبية وصاح في وجهها:

- أخبرتك أنني أرغب في الاطمئنان عليها الآن. هذا حقي. أنا أدفع من أجل هذا.

هنا أتاه صوت الفتاة وهي تجيب في خوف:

- بالطبع يا أستاذ. بالطبع.. هذا حقك بلا شك. سوف أذهب إليها حالًا. انتظرني لدقيقة من فضلك.

ومضى الوقت بطيئًا ثقيلًا، يرمقه الطفل بهدوء، وتهتز قدماه بلا توقف. في النهاية سمع الصيحات والجلبة التي أتته عبر الهاتف. تواثب قلبه واتسعت ابتسامة الطفل قبل أن تصرخ الفتاة في أذنه:

- لقد انتحرت.

وصل للمستشفى وما زالت جثتها معلقة في السقف وقد صنعت من أغطية الفراش أنشوطة لفتها حول رقبتها. تتدلى قدماها في الفراغ وتهتز هزات خفيفة والكل يرمقه بخوفٍ وحذرٍ ويشعر بالذهول وهو يتساءل. كيف أمكنها بلوغ سقف الحجرة وهو مرتفع هكذا كي تربط الأنشوطة به.

يطول الوقت ولا يشعر بما يدور. تحقيقات النيابة. تصريح الدفن. دفن الجثة بمقابر العائلة. العزاء الثقيل. البكاء الهستيري للأهل، وفي النهاية عاد للبيت وجلب الطفل من عند الجيران.

لا يدري لماذا شعر بالكراهية نحو الطفل في تلك اللحظة. لماذا شعر أنه مسؤول بصورة ما عما وصلت إليه زوجته من اكتئاب دفعها لشنق نفسها!

ويرقد الطفل بجواره نائمًا كملاك صغير بريء. يلوك بفمه طعامًا وهميًا ويزوم من حين لآخر ويتقلب. يجافي محسن النوم ويعتصره الألم فيغادر الفراش، يتحرك نحو الصالة وتصطدم عيناه بصورة معلّقة على الجدار. كانا فيها هو وأنغام يبتسمان في سعادة حقيقية. كانت تحتضنه من كتفيه من الخلف وهو جالس على كرسي وبجوارهما شاطئ البحر. ومرت بعقله ذكريات ذلك اليوم فشعر بقبضة من الألم تعتصر قلبه.

تتحرك عيناه نحو المطبخ. حجرة المائدة. الحمّام ولا يدري لماذا يشعر أن أنغام ما زالت بجواره وأنها معه بالشقة. فكر أنها قد تخرج فجأة من إحدى تلك الحجرات المغلقة لتخبره أنها مازالت حية وأن ما يمر به هو كابوس سخيف آخر. لكنه يدرك بحواسه أنه ليس كابوسًا، وأن زوجته لن تخرج من أيٍّ من تلك الحجرات.

يخرج للشرفة ويشعل لفافة تبغ. تتجول عيناه في الشارع

المظلم. يرى كلبًا ينبح. تتحرك سيارة صغيرة تنبعث منه موسيقى صاخبة. ويفكر أنه قد أذنب في حق زوجته. لم يكن عليه أن يتركها في المصحة النفسية. ربما زاد هذا من اكتئابها فانتحرت. وعاد بذاكرته للخلف. عاد لبداية القصة التي لم يكن عليها أبدًا أن ينغمس فيها. قدّم محروس قربانًا لغامضين منحوه طفلًا. منحوه طفلًا لا يشعر أبدًا أنه طبيعي. طفلًا كرهته زوجته وحاولت التخلص منه. طفلًا يحدّثه عن مرزوق الذي لا يعرفه. طفل يخيفه في الواقع.

ينتهي من سيجارته فيشعل واحدة أخرى. يرتفع بصره للسماء وتعود أنغام لتشغل تفكيره. هل تألمت كثيرًا وهي تفعل؟ ما الذي دار ببالها حينها وكيف قررت أن تترك الحياة فجأة هكذا؟ يتذكر نظراتها الغريبة التي طالما رمقته بها فيفكر في خاطر مفزع. هل أدركت بوسيلة ما فعله بمرزوق؟ وهل هذا أحد الأسباب التي دفعتها للتخلص من حياتها وقد شعرت أنها لم تعد تملك كتمان الأمر في أعماقها؟؟

يتحرك شباك شرفة ويظهر من خلفه سيدة في منتصف العمر لا يعرفها. ترتدي ملابس النوم الخفيفة فيبعد عينيه عنها، تغلق نافذتها ثانية. ويعود الكلب لينبح ثانية. هذه المرة كان النباح طويلًا متوترًا. وبحث بعينيه عنه محاولًا اختراق الظلام ببصره، كان يقبع أسفل سيارة وظل ينبح للحظات قبل أن يبتلع نباحه وينكمش حول نفسه. وبعد لحظة من الترقب رآهم..

كانوا أطفالًا عشرة، أكبرهم لا يتجاوز العاشرة حتمًا،

وأصغرهم قد يكون في الخامسة. يسيرون في طابور طويل بحركات آلية غريبة. أغمض محسن عينيه وفتحهما ليتأكد مما يراه. ما الذي يدعو هؤلاء الأطفال ليخرجوا إلى الشارع في وقت متأخر كهذا الوقت ولماذا خاف الكلب منهم ولماذا يسيرون بآلية هكذا. الغريب أنهم كانوا جميعًا محاطون بالقطط السوداء التي رآها من قبل.

تصاعدت منهم أنشودة حزينة مبهمة. حاول أن يتبين كلماتها فلم يفلح. اقتربوا من عمارته التي يسكن بها وأسفل شرفته توقفوا وقد اصطفُّوا في صف واحد، حتى انه توتر وهو لا يفهم لماذا يفعلون هذا. صمتوا للحظة فساد المكان سكون غريب، قبل أن يرفعوا وجوههم مرة واحدة نحو شرفته وتتعالى ثانية من أفواههم الأنشودة الغريبة التي أدرك الآن أنها ليست بالعربية.

وفي نفس اللحظة تناهت إلى أذنيه ترنيمة غامضة من داخل البيت. تحرك للداخل على الفور. لاحظ حجرته المغلقة، وأدرك أن الأنشودة تنبعث من داخلها. اقترب من باب الحجرة وألصق أذنه به فصارت الأصوات واضحة.

ميز من بينها صوت ابنه وصوت خشن لشخص بالغ وصوت طفل ما زال يذكر نبرته.

صوت مرزوق!

تسمر بمكانه وهو لا يدري ما عليه أن يفعله، ويرتفع الصوت أكثر مرددًا الأنشودة الغامضة الحزينة. المخيف أن صوت

ابنه امتزج مع تلك الأصوات في إنشاد تلك الأنشودة المريبة. نفض خوفه وجموده وقبض على مقبض الباب وحركه ليفتح الباب.

لم يستجِب. وحاول ثانية فلم يطاوعه الباب، ولم يتحرك..

ازداد توتره فراح يدفع الباب بذراعه وكتفه وهو يخاطب ابنه. توقفت الأنشودة المريبة واستجاب الباب في النهاية لمحاولاته، فدخل الحجرة.

كان أدهم يجلس على الفراش وهو يرمقه بهدوء. أضاء نورها وبحث بعينيه بسرعة عن غرباء قد يختبئون بها، فتش الدولاب ونظر أسفل الفراش وتأكد أن النافذة مُحكَمة الغلق. لم يعثر على أحدٍ فالتفت إلى الطفل الذي كان يتابعه بهدوء. توقف أمامه متوترًا متلاحق الأنفاس وقال في صوت مرتعش:

- مع مَن كنت تتحدث؟ أخبرني يا أدهم.

أجابه الطفل بصوت آلي:

- لقد رحلوا. أنت جعلتهم يذهبون.

اشتعل عقله من الغضب حينها فهتف وهو يمسكه من ذراعه بقسوة:

- مَن هؤلاء الذين رحلوا؟

- مرزوق كان هنا. والرجل الضخم. لقد ذهبا حين دخلت.

رمقه محسن بعينين متسعتين، ثم تذكّر الأطفال والقطط السوداء الموجودين أسفل العمارة. هرع للشرفة ونظر في الشارع المظلم، فلم يجد أثرًا لهم. كانوا قد اختفوا هم الأُخر وقد تركوا له أحجية جديدة.

من هؤلاء ومن أين أتوا وماذا يريدون من ابنه؟

وككل مرة لم يكن هناك إجابة

6

هزت الجريمة أنحاء العاصمة كلها، كانت جريمة بشعة وتبارت الصحف في وصفها والبحث عن مبرراتها ودوافعها. في الأخبار جاء الخبر معنونا بـ

«جريمة بشعة.. يمزق جسد زوجته ويتهم طفله بفعل هذا».

بينما تحدث المصري اليوم عن الجريمة تحت عنوان:

«الجزار..سلخ جلد زوجته، وأخفى جثة طفله، وادّعى الجنون».

قرأ محسن كل الأخبار. كان القاتل أبًا في منتصف الثلاثينيات من عمره، أطلقوا عليه «ش.ع» وهو تاجر قطع غيار بالتوفيقية. رزق بطفل بعد أعوام كثيرة من العقم، أطلق عليه اسم شادي. ازدادت الخلافات بينه وبين زوجته بعد الإنجاب حتى إنها أصيبت باضطرابات نفسية وذهبت لطبيب نفسي من أجل هذا. أكّد الجيران أنها لم تتوقف أبدًا عن الصراخ ليلًا ونهارًا وأنه دومًا كان يصرخ في وجهها.

وفي يوم الجريمة فوجئ به الجيران يغادر الشقة في منتصف الليل بملابس النوم وهو ملوث بالكامل بالدماء. راح يصرخ فيهم ان زوجته قد قتلت. كان يصر أنه طفله الذي لا يتعدى العام والنصف هو من فعل. وحين دخلوا الشقة وجدوا الهول. زوجته معلّقة في السقف وقد تم سلخ جلدها بالكامل عن جسدها. أمسكوا به حينها وسلموه للشرطة وحين بحثوا

على الطفل لم يعثروا على أثر له. تعتقد الشرطة أن الأب قد قتلَ الطفل قبل قتل زوجته وأنه قد أخفى الجثة في مكان ما.

ألقى محسن بالجريدتين أمامه. وراح يقلب في رأسه ما يرمز له «ش.ع». وبعد هنيهة تذكّر. شاكر عبد الفتاح. تاجر قطع غيار السيارات بالتوفيقية. الرجل العقيم الذي صار سعيدًا بعد أن ساعده الموقع على الإنجاب. الرجل الذي مدح الموقع الغامض وطالبه أن يصدقهم. الرجل الذي أرسله الموقع له كي يؤكد له أنهم جادون.

إذًا فقد قتلَ زوجته، وقد يكون قد قتلَ طفله كذلك. لماذا يشعر أن بالجريمة شيء مألوف له؟ عاد للخبر ثانية وبحث عن صورة له. لم تنشر أي من الجريدتين صورة له. قرر أن يجرب حظه في مواقع النت الإخبارية. كان يرغب في التأكد أن القاتل هو نفسه الرجل الذي قابله من قبل. اختار اليوم السابع في البداية ومن حسن حظه كانت هناك صورتان للقاتل تعرفه فيهما على الفور.

وألحت عليه رغبة قوية في أن يراه وأن يحدثه. يجب أن يعلم لماذا فعل جريمته وهل لطفله شادي علاقة بما قام به أم لا. يفكر في طفله أدهم الذي لا يكف عن بث الدهشة والرعب في نفسه بتصرفاته الغريبة. يتذكّر كيف حاولت زوجته قتل الطفل وكيف أصابها بالاضطراب حتى انتحرت مثلما يزعمون، ومثلما يحاول أن يقنع نفسه، في الواقع وفي مكان خفي في نفسه كان يدرك أن زوجته قد قُتلت، كما كان

متأكدًا أن لابنه يدًا في ما حدث لها بصورة ما.

فكر في وسيلة كي يقابل شاكر عبد الفتاح في محبسه. كان متأكدًا أن رجال الشرطة لن يسمحوا له أبدًا بهذا مهما حاول. هنا تذكّر ابن عمه المقدم شريف، ضابط الأمن القومي. اتصل به وأخبره أنه يبغي مقابلة هذا القاتل، وأن الأمر هام وإن كان غير قادر على الإفصاح عن مبرراته. وبعد ساعتين عاد شريف ليتصل به وأخبره أنه سيرافقه للغد لزيارة الرجل في محبسه.

تغيّر شاكر كثيرًا. ظهر هذا جليًا منذ الوهلة الأولى، صار نحيفًا. استطالت لحيته وتحوّل لونها للون الأبيض، وتقلص جفناه في اضطراب فاتسعت عيناه في تعبير ذهول دائم. لا يكف كفاه عن الارتعاش. جلس على المقعد الخشبي بهدوء مطرِقًا برأسه نحو قدميه. انتظر محسن حتى انصرف الشرطي الذي أتى به وأغلق الباب خلفه ونظر إلى شاكر مفكرًا كيف يبدأ حديثه. لكن الأخير بدأ الحديث نظر له بعينين مجنونتين زائغتين ومال نحوه وهمس:

- إنهم شياطين. لم أدرك هذا في البداية. كنت أحمقَ وها أنا أدفع الثمن. بل لقد دفعت زوجتي الثمن.

كلمات مضطربة غير مترابطة. وأراد محسن أن يفهم. فقال له مهدئًا:

- اهدأ يا أستاذ شاكر. أخبِرني من تقصدهم بالشياطين؟

لكن شاكر واصل التحدث في جنون وهو يقول:

- الموقع الغامض. الطفل الملعون الذي أنجبته. كلهم شياطين. كلهم وحوش.

بدا على وجهه تعبير مفزع من الجنون. يرمقه محسن بفزع ويتجلى في عقله ابنه أدهم. يشعر بالدوار، ويقول بصوت مبحوح وقلب مضطرب:

- لست أفهم شيئًا يا أستاذ شاكر، ولا أدري لماذا نعتَّ طفلك بالملعون. حدثني بهدوء من فضلك.

ينهض من مكانه ويقف على رأس محسن ويميل نحو أذنه اليمنى ويقول بلهجة غريبة:

- لقد قدمتَ لهم قربانًا بشريًا. لقد فعلت. أعلم هذا. أنا نفسي فعلت هذا قبلك. بل وأقنعتك أن تفعل. لقد اختطفت طفلًا، وذهبت به للمقبرة الملعونة. لقد فعلت هذا بنفسي وتركت الطفل المسكين للشياطين. وحين أنجبت الطفل كان يشبه ذلك الطفل الذي قتلته. كان بذرة شيطانية. بذرة تنتمي للجحيم.

جفَّ حلق محسن هلعًا والرجل يصارحه بكل هذا. لقد راح يؤكد له شكوكه. لقد قتل هو الآخر طفلًا من أجل أن ينجب. وجاء طفله سبيها بالطفل الذي قتله. نفس الذي حدث مع ابنه الذي يشبه مرزوق كثيرًا. وانتبه للرجل الذي عاد لمقعده وراح يخفي وجهه بين راحتيه للحظات وهو ينتحب ثم قال:

- أدركت حنان زوجتي الخطأ منذ البداية. لا تعلم كيف تبدلت بعد الإنجاب وكيف كانت تخشى الطفل. كنت أنا الآخر

أعاني من الكوابيس التي لا تنقطع. نحن الاثنان كنّا في أسوأ حال. راحت ترفع صوتها وتتشاجر معي في كل لحظة وكنت أبادلها المشاجرات. لم أصدقها في كل ما كانت تزعمه من أفعال غامضة يفعلها الطفل، رحت اتهمها بالجنون وذهبت بها للطبيب النفسي الذي ظنّ أنها تعاني من اكتئاب ما بعد الولادة. وطالبني بإبعاد طفلي عنها بعض الوقت.

عاد شاكر لينتحب ثانية وجسده ينتفض. لم يجد محسن في باله ما يقوله له. الرجل يقص ما جرى له. الأحداث متشابهة لحد مرعب مع ما حدث له. وبعد دقيقة مسح الرجل أنفه بكمه، وأكمل:

- ذهبت بشادي إلى أختي لتهتم به. لم تحتمله ليوم واحد وأعادته وزعمت أن الطفل ممسوس. هنا بدأت انتبه لما يفعله لطفل. أصوات غامضة يصدرها. نظرات مريبة واعية يرقب بها كل شيء. وجدته ذات ليلة يتحدث بلغة غريبة لا أعرفها ولا أدري كيف تعلمها. ثم جاءوا. المرة الأولى التي علمت بوجودهم كان قرب الفجر. كانوا يرددون أغنياتهم الشيطانية الحزينة وكان بحجرته يردّدها معهم.

ومال نحوه بعينين متسعتين وهتف:

- لقد زاروك أليس كذلك. هل رأيت الأطفال العشرة، والقطط السوداء. إنهم في كل مرة عَشر. أجل. عَشر في كل مرة، وحولهم قطط سوداء.

كل هذا كان قد حدث له. واشتعل الفزع في قلب محسن

من ابنه. ابتلع ريقه بصعوبة وهو يتمنى ألا يصدق ما يسمعه الآن، ثم شعر أن الوقت قد حان لسؤاله عن سبب قتله لزوجته:

- وماذا عن زوجتك؟ هل قتلتها فعلًا؟

أجابه شاكر على الفور وما زال يبكي:

- وهل تعتقد أنني يمكنني أن أفعل. إنهم لن يصدقوني لأنهم لا يعلمون. لكنك ستفعل. أنت واجهت ما أواجهه وتدرك أنني لا أكذب؛ لقد فعلها. فعلها حين حاولت أن تقتله بالسكين قبلها. لقد كنت نائمًا حين قتلها. لم أسمعها وهي تستغيث. لم أشعر بأي شيء. وحين أفقت كان بجوارها يبتسم وفي يده السكين الذي سلخها به. هتف حينها بنشوة «إنها تستحق. لم أكن أحبها» لم أشعر بنفسي وقتها فاحتضنت جسدها الدامي. هرولت خلفه لأقتله. قبضت على قدمه وانتزعت السكين من يده. لكنه ركلني في وجهي وهرب. قفز من النافذة المفتوحة حيث كان الأطفال الشياطين العشرة ينتظرونه وذهبوا به. حاولت اللحاق به فلم أقدر. إنهم شياطين يا محسن. وطفلك مثلهم. سوف يقتل أمّه وسوف يقتلك.

وتعالى صوته وهو يصرخ:

- اقتل الشيطان قبل أن يقتلك. إنه ليس ابنك. إنه شيطان من أعماق الجحيم. شيطان لعين.

7

شعر محسن بالفزع والتيه.. أراد أن يختلي بنفسه بعض الوقت كي يتدبر ما سمعه. كل ما حدثَ لشاكر يحدث معه. تشابهت البدايات والأحداث فهل تتشابه النهاية. يخشى أن يعترف بهذا. وبدا يشعر بالذعر من المكوث في المنزل مع الطفل بمفرده. كان تفكيرًا جنونيًا. هل يخشى المرء طفله الذي تجاوز عامه الأول بالكاد. لكن هل هو طفل حقًّا؟

بل هل هو حقًّا طفل عادي أم أنه كما يزعم شاكر ويؤكد نبتة شيطانية؟

عاد للمنزل فوجد أدهم بانتظاره. أخبره أنه جائع فأعدّ له الطعام. تركه يأكل وجلس في حجرته يفكر فيما عليه أن يفعله. طالبه شاكر بقتل الطفل قبل أن يقتله، فهل يمكنه أن يفعل. هل يقتل ابنه مهما بدا عليه من شذوذ وغرابة. وسمع الطفل يغني. عاد لينشد تلك الأغنية الغامضة الحزينة التي كان الأطفال يرددونها بالأمس. لغتها الغريبة التي لا يعرفها كانت تبث رعبًا غامضًا في ثنايا قلبه. ليست الإنجليزية التي يجيدها ولا الفرنسية التي يعرف مخارج حروفها ولا هي الإسبانية التي درسها لعامين. فماذا تراها تكون، وكيف ومتى تعلم الطفل كلماتها.

يفتك التفكير به فيأتي الصداع بجيوشه الجرارة ليغزو عقله. يريد إجابات. يريد أن يعرف. يريد أن يفهم ما يحدث..

ودون أن يدري تمتد يده للاب توب ويفتحه. وأدرك بدهشة

لماذا فعل. سوف يعود للموقع الغامض ثانية. سيعود للموقع ليبحث عن إجابات لأسئلة تعصف به.

هل ابنه طفل طبيعي، وما علاقته بمرزوق. ولماذا لا تفارقه الكوابيس. من هُم ولماذا طالبوه بطفل ولماذا أعطوه طفلًا وكيف فعلوا؟؟؟ كلها أسئلة تحيره. كلها أسئلة تنتظر الإجابة.

فتح بريده الإلكتروني، وبحث عن الرسالة الأخيرة التي تركها الموقع له. الرسالة التي طالبوه ألا يستخدم رابطها إلا للضرورة القصوى لأنها ستكون المرة الأخيرة التي يصل فيها إليهم. وبلا تردد ضغط الرابط. وعادت الصفحة الغامضة لتملأ الشاشة أمامه. كانت سوداء تمامًا، ضغط على زر الاتصال ودخل حجرة المحادثة. وكما يحدث دومًا كانت الرسالة الأولى من نصيبهم:

- إنها سوداء هذه المرة من أجل زوجتك. إننا آسفون لفقدنك إيّاها.

- وهل تراقبونني. هل مازلتم تتابعون ما يحدث لي. بل وهل تتدخلون في ما يحدث؟؟

- ولماذا تسميها مراقبة ومتابعة؟ يمكنك أن تدعوها اطمئنانًا على عميل لنا.

- تطمئنون عليّ أم على الطفل؟

- إنه طفلك ولن يزعجك أن نهتم به .أليس كذلك؟

- بل يزعجني أن تفعلوا. يزعجني لأقصى حد قد تتخيلونه.

لا أريد اهتمامكم هذا ولا أريد ان تتدخلوا ثانية في حياتي.

- أنت متوتر للغاية. يبدو أن شاكر قد أزعجك بشكوكه وهواجسه.

- إذا فأنتم تعلمون بأمر زيارتي لشاكر. جميل أنك أخبرتني بهذا، فهناك أسئلة أبغي الحصول على إجاباتها. هل فعلًا طفله مَن قتل زوجته بتلك الطريقة البشعة.

- لقد حاولت أمُّه قتله.كان عليه أن يدافع عن نفسه.

هل هذا اعتراف ضمني بأن الطفل من قام بهذا. طفل لا يتعدى العام والنصف يقدر على فعل أمرٍ كهذا. من المستحيل أن يكون بشريًا. إنه شيطاني بلا شك. ويكتب في ذهول:

- وكيف أمكنه أن يفعل. إنه مجرد طفل.

- إننا دومًا بالجوار يا محسن. علينا حمايتهم والدفاع عنهم.

- حمايتهم مِن أهلهم؟!. مِن أمهم؟!. هل تدافعون عنهم بقتل آبائهم. من أنتم ومن هؤلاء. ومَن هؤلاء الأطفال؟!.. هل هم حقًا أبناؤنا، أم أنهم ماذا؟

- إنهم هديتنا لكم. عليكم أن تشكرونا من اجلهم. وعليكم ان تحافظوا عليهم. لكننا لن نرحم أحدًا لو حاول إيذاء أي منهم.

- هل تعني أن أدهم ليس ابني.

- إنه يحمل جيناتك.

- وماذا عن روحه؟

- إنها ملكنا. إنه طفلنا مثلما هو طفلك.

يحدق بالشاشة في ذهول. ويدخل الطفل في نفس اللحظة الحجرة. ما زال يشدو أغنيته الحزينة الغامضة. ما زالت عيناه الواسعتان تبثان تعبيرات مبهمة من الفزع. هنا يصرخ فيه محسن:

- هلا كففت عن هذا؟.. لا أريد ان أسمع صوتك.

يصمت الطفل ويرمقه بلا مبالاة ثم ينصرف ومن خارج الحجرة يعود للغناء، ويعود محسن لشاشة الكمبيوتر وهو لا يتمالك نفسه:

- مَن أنتم يا هذا؟ لكن انتظر.. لا يهم هذا الآن. أنتم شياطين قتلة. سوف أفضحكم وأكشف للعالم ألاعيبكم. سوف أشهد مع شاكر وسأحاول تبرئته. سوف أعرض طفلي على الأطباء. على الشيوخ والمعالجين .. لن أسكت أبدًا على ما تقومون به.

- لن تفعل شيئًا. ولن تستطيع إثبات أي شيء.

وانتهت المحادثة فجأة كما يحدث كل مرة. أحسّ بالحنق فطوح الجهاز ليصطدم بالحائط فيتهشم.

وتعالى صوت الطفل وأصوات أخرى تجاوبه. فتح نافذة الحجرة ليراهم أسفل شرفته. عشرة أطفال يشدون معهم أغنيتهم الحزينة وحولهم تقف القطط السوداء في جمود. ومن الشرفة راح طفله يشدو معهم. رعب لا حدود به أحس به وحين نظر إلى أدهم شعر أنه لا ينتمي له أبدًا. إنه يشبه

الأطفال الآخرين وينتمي لهم.

ويدق هاتفه. كان شريف هو من يتصل به. وأجابه وهتف به شريف:

- لن تصدق ما حدث. لقد مات الرجل الذي زرته اليوم. لقد احترق فجأة ولم يستطيعوا نجدته. لا يدري أحد كيف حدث هذا لكن آخر ما قاله قبل أن يموت «الطفل.. ما زال حيًا.. اقتلوه» ما قصة هذا الرجل بالضبط يا محسن؟

يسقط الهاتف من يده. إذا فقد قتلوه هو الآخر، إذا هل يأتي دوره بعد ذلك. لن ينتظر أبدًا أن يحدث هذا. لن ينتزعوا طفله منه. لن يسلبوه عمره. وراح يفكر في ما عليه أن يفعله. وبعد ساعات من التفكير أدرك ما عليه القيام به.

****

إنها المقبرة.. كل شيء قد بدأ بها، وكل شيء قد ينتهي فيها.

حمل الطفل النائم وثبته في مقعد السيارة المجاور له بحزام الأمان. حمل حقيبة ممتلئة عن آخرها بالأغراض. وتحرك بالسيارة نحو المقبرة الغامضة. الليل قد غادر منتصفه منذ ساعة على الأقل. وكانت الشوارع خالية فوصل إليها بعد نصف ساعة. وفي مدخلها رأى الرجل العجوز الذي قابله في المرة الأولى.

كان واقفًا على جانب المدخل يرمقه بثبات كأنما كان

بانتظاره. توقف بالسيارة وراح ينظر له بارتياب. لم يتحرك الرجل فتحرك هو بالسيارة نحو الداخل بعد أن تحسس مسدسه الموجود المثبت بحزامه. لو حاول هذا الرجل المريب مفاجأته فسوف يقتله. لن يتردد في هذا. إنه ينتمي لهؤلاء الأشرار حتمًا ويسهل لهم أعمالهم. إنه مثلهم ويستحق القتل مثلهم.

كان يعرف طريقه. تقدّم بين شواهد القبور المقبضة الكئيبة ببطء وضوء السيارة يبعثر نوره على الطريق أمامه. وقرب النهاية علم أنه قد وصل لغايته. ترجل بعد أن نظر لطفله الراقد بجواره واطمأن لنومه. من بعيد تناهى لسمعه عواء غامض ونباح مذعور. ومن حين لآخر كان يظهر فجأة صوت حشرة أو حيوان ما ليبدد السكون المقدس.. فتح حقيبة السيارة الخلفية وأخرج منها أسطوانتي غاز وتحرك ليضعهما خلف القبر. وعاد ثانية وحمل زجاجة بلاستيكية وسكب ما بها من سائل على الأسطوانتين وحولهما.

عاد للسيارة فرأى العيون الواسعة السرمدية لطفله ترمقه بهدوء. أصابه الوجل للحظة قبل أن يهمس لطفله عبر النافذة:

- لا تقلق يا حبيبي. سأكون معك بعد قليل.

وعاد للسيارة وجاء بفأس استعاره من البواب. وأمام باب القبر المغلق راح ينقب في التراب ويرفعه حتى وصل للباب الخشبي. توقف ليستريح قليلًا وعاد العواء الغامض يعوي من مكان مظلم بعيد وصداه يتردد في كل مكان حوله وكأنما

يبث في المكان رعب غامض. نظر محسن للسيارة فرأى أدهم يراقبه بهدوء. انحنى ثانية نحو الباب الخشبي للمقبرة وجذبه بقوة حتى استجاب له. ثم أسرع بإغلاق أنفه ليتجنب الرائحة العفنة التي أتت من القبر فجأة.

أشعل كشافه اليدوي ودخل القبر. وفي أحد الجوانب كانت هناك جثة طفل ما تآكل اللحم منها تاركًا العظام. هل يكون مرزوق. ليس متأكدًا. وعلى الأرض رأى آثار النجمة الخماسية المرسومة بالطبشور. والدوائر والمثلثات الغامضة التي رسمها من قبل قبل عامين. لم تكن تحمل خطه فأدرك أن هناك من أتى بعده.

أعاد ترميم الرسوم وسدّ فجواتها. أشعل بخوره الجاوي، وأشعل شموعه السوداء. ذهب بعدها إلى السيارة وأتى بطفله. يوقف أدهم في أحد الجدران بهدوء دون أن يبدو عليه أي أثر للخوف مما يدور حوله.

هنا بدأ محسن في ترديد القصيدة القديمة، القصيدة الملعونة التي بدأت كل هذا الشر الرهيب:

بحق أزمنة الشر السحيقة وسادتها القدماء.

بحق سكان الجحيم ومردَتِه وشيطانيه

بحق سيد الظلمة والجحيم والنار والظلال.

بحق جعكان ومطرون والأجدع شيصبان.

أمنحك يا مولاي قربانك البشري.

حياة بحياة وطفل وبطفل.

ثم أخرج البومة التي اشتراها وهوى بسكّينه على عنقها. وبينما ينساب الدم على الأرض كان محسن يعلم أنهم سيأتون الآن. سيحضر ذلك الشيطان الذي تلقذى قربانه الأول. سيرى ما يفعله في ابنه. هل يعده قربانًا ويحاول إيذاءه، أم لا يقربه ويحاول حمايته.

نظر حينها في رعب للطفل الساكن الجنان والذي لا يبدو أبدًا أنه يقلقه ما يحدث. ومن الظلام راحت تتردد الأصوات الغامضة وهي تتلو تراتيل شيطانية قديمة. هنا بدأت الظلال المخيفة في التسلل عبر جدران المقبرة المتهدمة، ثم ارتفع بعدها دخان الأسود من وسط النجمة الخماسية قبل أن ينقشع عن مارد رهيب. مارد أسود لم يتخيل أبدًا بشاعته.

ارتجف قلب محسن في فزع لم يشعر به من قبل. فالتفت للطفل ليرى تأثير المارد عليه. رأى برعب أن الطفل يرمق المارد مبتسمًا. وبينما جف حلقه رعبًا، تحدث المارد وهو يدور برأسه في المكان قبل أن يتوقف ببصره عند أدهم.

- أين قربان أبادون. أين قربان السيد؟

ثم التفت المارد الشيطاني إلى محسن ورمقه بعين نارية جمدت الدماء في عروقه وأكمل المارد بصوته المخيف:

- هل تمزح أيها البشري؟ هل تقدم ابنا لأبادون قربانًا له؟!

هنا تخلص محسن من جموده عند هذا وصرخ في يأس:

- إنه ابني. ابني أنا وليس ابن أي أحدٍ آخر.

- بل هو ابن أبادون أيها البشري. ألم يهبك إياه من قبل. لماذا عدت به إلى هنا؟؟ لقد سعيت نحو هلاكك أيها البشري حين عدت. لن أعود أبدًا إلى سيدي بغير قربان. ستكون أنت قربانه.

هنا أدرك محسن أن عليه الهرب الآن، فاندفع نحو طفله. رفعه على ذراعيه دون أن يعترض الطفل وتسلق به القبر وهو يرجو ألا يدركه المارد. العجيب أن المارد لم يفعل. ترك محسن أدهم أمام القبر وهرول نحو أسطوانتيّ الغاز اللتين وضعهما خلف القبر وغمرها بالكيروسين وقد قرّر أن يفجر القبر. أخرج قداحته من جيبه. وحاول إشعالها وأصوات رهيبة تتردد داخل القبر. فشل في المرة الأولى وفي الثانية تراقصت زهرة النار من فوهة القداحة. ألقاها في الهواء نحو الأسطوانتين لكن يدًا خفية تلقفتها فانطفأت واختفت فجأة.

هنا انتبه لما يحدث حوله وقد غمر الفراغ ظلام بهيم، وجد المارد أمامه فجأة وخلفه كان هناك أطفال عشر يرددون أغنية غامضة حزينة وابنه بينهم. تقدموا نحوه فأدرك محسن أنها النهاية. تراجع نحو القبر. وفي النهاية لم يعد أمامه إلا أن يختبئ داخله. راح يتراجع بجسده للخلف ليتوارى في الظلام حتى اصطدم بجثة مرزوق المنتصبة على الجدار. صرخ رغمًا عنه، وفي اللحظة التالية عاد باب القبر لمكانه فصار محسن محبوسًا في المقبرة القديمة. اندفع رغم الظلام نحو الباب وراح يطرقه ويدفعه لكن الباب ظلّ في مكانه.

بالخارج اختفى المارد وانحني أدهم نحو الأرض المظلمة والتقط قداحة أبيه. أشعلها بهدوء ودون تردُّد ألقاها نحو الأسطوانتين الغازيتين. وبينما اشتعلت بهما النار ابتعد مع الأطفال. ومن داخل القبر ظلت صرخات الأب تدوّي بلا انقطاع قبل أن يسكت انفجاران رهيبان كلّ صوت.

تحول القبر بعدها لكتلة نارية من الجحيم.

ومن بعيد وبين الشواهد المظلمة للقبور كان هناك أحد عشر طفلًا وعشرات من القطط السوداء يتحركون، وينشدون سويًا أغنية غامضة حزينة.

أغنية أبادون الأخيرة..

8

يتربع أبادون على عرشه في منتصف الجحيم. يرقب أنات المعذبين في أحشائه، وينتشي بآلامهم وعذابهم. يركع أعوانه في كل لحظة بين يديه المخلبيتين، تحت عرشة الذهبي المكلل بجماجم ضحاياه وقرابينه، ويعرضون له أعمالَ الظلام التي اقترفوها من أجله، ليبتهج بها ويسر. ثم يرفع رأسه نحو أبيه المبجل، سيد الظلام المستوي على عرش من النار في قمة الجحيم، ويزأر بكلمات تجدد عهد الظلام لسيد الظلام، قبل أن يخفض رأسه لرعاياه التعساء ويعاود التفكير في حيلة شريرة جديدة، ومكيدة أخرى من مكائد الجحيم.

يتذكر عهود الظلام البعيدة. عهود الظلام السعيدة.عهود موغلة في القدم سادوا فيها العوالم السبع وارتفعت راية بعلزبول الأب في كل مكان تعلن له الولاء والطاعة، لكن أيًّا من تلك العهود والعصور لم يَدُم أبدًا طويلًا كما خططوا. فدومًا كان هناك من البشر من يقاوم. كان منهم من يحارب، ومن يغلبهم ويدحرهم.

تشتعل عيناه ويزفر نيرانًا تشوي أجسادَ الأتباع من أمامه، إذ يتذكر هزائمه المتكررة مع البشر. هؤلاء الكائنات الحقيرة الضعيفة التي تسببت في طرد سيدهم من الجنة في العصور الأولى ولعنته وأتباعه من الرب إلى أبد الدهر.

فكر في مكيدة جديدة لا تخيب؛ ذُرية شيطانية ينشرها بين البشر بأجساد بشرية وأرواح شيطانية. ذُرية يدعمها

ويؤازرها حتى تسود العوالم كلها، ولا تحمل في أحشائها إلا الطاعة والولاء لأبادون وأبيه، سيد الظلام.

يزخر عالمه بأرواح الأشقياء التعسين من أتباعه. أرواح مظلمة لا تعرف إلا الشر ولا يدرك قلبها الرحمة ولا مكان للشفقة فيها. أرواح تتوق بشدة للعودة إلى الأرض ثانية لتفجر فيها وتهلك الحرث والنسل وتنشر الفساد. أرواح لا تبغي إلا رضا أبادون وبعلزبول وسادة الشياطين القدماء.

أرواح فنت من الأرض وغادرتها بلا عودة، وقد كانت تنتمي لعصور مظلمة لم يدركها البشر. أرواح أسيرة لقيود الحجيم تنتظر من يحررها.

تحتاج للدم البشري والقرابين. تحتاج لأجساد ضعيفة تحتلها وتعيد تهيئتها وتشكيلها. وكان أبادون يعرف ما عليه أن يفعله ليحررها.

حياة بحياة وطفل بطفل وروح من الحجيم تُهلك روحًا بشرية وتحتل جسدها.

ودومًا كان هناك من الأتباع من يجتهد لإرضاء أبادون. ودومًا كان هناك من يقدّم القرابين. وخرج من الحجيم عشرات الآلاف من الأرواح المظلمة وهبطت إلى الأرض وقد فازت بالخلاص.

إنهم حولك في كل مكان. وقد يكونون في جوف أي طفل حولك. ربما يكون هذا الطفل اللطيف الذي تتباهى به أختك بعد أن أنجبته بعد أعوام من العقم أحدهم. وقد يكون ذاك

الطفل الذي بُشِّر به جارك العقيم العجوز بعد أن بلغ من العمر أرذله أحدَ أوعيتهم. إنهم -كما أخبرتك- في كل مكان.

إنهم دومًا يعملون في صمت. يستعدون للحظة المناسبة في هدوء وروية. إن عصور الظلام قادمة نحو البشر تسعى حثيثًا.

وفي جحيمه يضحك أبادون منتشيًا.

إنه راضٍ عن الأعوان.

إنه هو الآخر يستعد.

تمت

كلمة أخيرة ..

إلى إيمان ربيع. شكرًا

إلى يوسف.. مرحبا بك في هذا العالم الكبير.. عسى أن يتسع دومًا لأحلامك.